رحلة الى بغداد
في عهد الوالي داود باشا

للرحالة الانكليزي الشهير
جمس ريموند ولستيد

ترجمة وتعليق
سليم طه التكريتي

طبع بمطبعة ثويني - بغداد - هاتف ٨٨٧٨٣٥١

شر وتوزيع مكتبة النهضة العربية ومكتبة دار احياء التراث العربي

بغداد - هاتف : ٨٨٨٩٣٥٩ - تلكس : ٣٠٩٦ - بغداد

عناوين رحلة ولستيد

TRAVELS TO THE
CITY OF THE CALIPHAS
ALONG THE SHORES OF THE ARABIAN GULF AND THE MIDITERRANEAN INCLUDING VOYAGE TO THE COAST OF ARABIA AND TOUR ON THE ISLAND OF SOCATRA
IN TWO VOLUMES

رحلات الى مدينة الخلفاء
على امتداد شواطىء الخليج العربي والبحر الابيض المتوسط بما في ذلك
رحلة الى ساحل الجزيرة العربية وجولة في جزيرة سقطرى
في مجلدين
طبع في لندن سنة ١٨٤٠م

يعتبر عهد الوالي داود باشا، الذي حكم في الفترة مابين سنة ١٨١٦ - ١٨٣١م من اهم العهود طيلة حكم المماليك الذي امتد من سنة ١٧٤٨م حتى سنة ١٨٣١م. وذلك لما امتاز به هذا الوالي من همة عالية، وحب للاصلاح، وحنكة في ادارة شؤون البلاد، بحيث اصبح العراق في عهده ولأول مرة، بلداً موحداً، وقوياً. فقد استطاع داود ان يوطد سلطته في طول البلاد وعرضها، وان يقضي على الفتن والقلاقل، وان يخلق الجو الملائم لتنشيط حركة التجارة والصناعة، وبعث الحياة العلمية والأدبية في البلاد.

على ان هذا الوضع مالبث ان تعرض لكارثة طبيعية كبرى، هي كارثة الطاعون الذي اجتاح البلاد، وراح يفتك بأبنائها فتكاً ذريعاً، وينشر الموت والدمار في كل مكان يحل فيه. ولقد كان نصيب بغداد من مآسي هذا الوباء، نصيب الاسد حقاً. ذلك ان الطاعون قد أهلك اكثرية سكان بغداد، ولم يبق من مجموعهم الذي كان يعد مائة وخمسين الف نسمة، سوى عشرين الف نسمة. وزاد من تعاظم هذا الخطر، تفاقم الفوضىٰ وانتشار عصابات اللصوص والقتلة الذين كانوا ينهبون ما في البيوت من أموال، ويقتلون من بقي فيها من الاحياء. واخيراً كملت الكارثة عندما فاض نهر دجلة، وطغت مياهه على بغداد فأغرقتها، ودمرت ما ظل قائماً من بيوتها ومعاهدها.

ولقد كانت هذه الكوارث الطبيعية التي المت بالعراق، وبالعاصمة بصفة اساسية، من العوامل التي شجعت الحكومة العثمانية على اعادة احتلال العراق بقوة السلاح، والقضاء على الاستقلال الذي كان يتمتع به في عهد المماليك، حيث توجهت الجيوش العثمانية الى العراق، ولم تلق سوى مقاومة ضعيفة أمامها، فأستعاد السلطان بلاد العراق، وضمه من جديد الى امبراطوريته ليظل يخضع للارهاب العثماني حتىٰ احتلال الانكليز له اثناء الحرب العالمية الاولى.

ولقد كان للانكليز أثرهم القوي في تحريض الحكومة العثمانية ضد داود باشا، وتشجيعها على ضربه، وذلك بسبب المواقف الشديدة التي وقفها داود اثناء حكمه بوجه المطامع الانكليزية، والغائه للكثير من الامتيازات التي كان الانكليز يتمتعون بها في العراق، ومن ثم تصديه للمقيم البريطاني في بغداد، وطرده من العراق.



ان هذا الكتاب الذي نقدمه الى القارىء، عبارة عن فصول تخص بغداد وحدها، اخترناها من رحلة واسعة وشهيرة قام بها الرحالة الانكليزي المعروف «جمس ريموند ولستيد» سنة ١٨٣٠م، واطلق عليها اسم «رحلات الى مدينة الخلفاء» تقع في مجلدين كبيرين، بدأها من الهند فطاف سواحل الجزيرة العربية، وقصد جزيرة سقطرى ثم عاد الى الخليج العربي فمخر عبابه، وصعد من البصرة في قارب بنهر الفرات حتى وصل الى مدينة الحلة ومنها بطريق البر الى بغداد.

وبعد ان استقر في بغداد زمناً غير قصير، اطلع خلاله على الاحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ووصف معالمها وآثارها، وشهد بأم عينيه الخراب الذي احدثه الطاعون واللصوص والفيضان في ارجائها، ارتحل عنها في قافلة وبمحاذاة نهر الفرات الى سوريا ليطوف بأرجائها، وينتقل منها الى لبنان، ثم يعود من هناك الى بغداد مرة اخرى ويتخذ سبيله في نهر دجلة الى البصرة، ويجتاز الخليج العربي من جديد ليعود الى مقره فى بغداد.

مما امتاز به هذا الرحالة هو دقة الملاحظة، وسعة الوصف، واطلاعه الواضح على الكثير من النواحي الاجتماعية والسياسية في الخليج العربي وفي العراق وسوريا ولبنان في ذلك الوقت، مما يجعل من رحلته هذه

مصدراً قيماً يمكن الرجوع اليه في البحث عن اوضاع تلك الاقطار في تلك الفترة من الزمن .

غير ان أهم ميزة امتاز بها هذا الرحالة ، هي ثناؤه العاطر على العرب والمسلمين ، والاشادة بالحضارة العربية الاسلامية ، وما افاءت به على العالم آنذاك من العلوم والفنون والاساليب ، وما أصبحت أوربا الحديثة مدينة به لتلك الحضارة الزاهرة في شتى مناحي الحياة .

والحقيقة ان الاهمية التي تتمتع بها هذه الرحلة قد تشجعنا وفي وقت قريب على الاستعداد لترجمتها ونشرها كاملة ، وان هذا الجزء الذي ترجمناه منها عن بغداد ، يمكن ان يعتبر مساهمة منا في الاحتفال الذي أرادت الهيئات العلمية والادبية ، اعداده منذ سنوات للاشادة ببدء القرن الخامس الهجري العظيم ، وبذكرى مجد بغداد ، وتأريخها الغابر المجيد . .

بغداد　　　　١ حزيران ١٩٨٤　　　　سليم طه التكريتي

الفصل الاول[1]

خرائب معابد، الوصول الى مدينة الحلة، وصف برج بيلوس في بابل[2] المجلبي[3] نهر دجلة والفرات، فتاة الحي[4] خرائب عقرقوف[5]

---

(١) هذا هو الفصل الثاني عشر من المجلد الاول للرحلة.

(٢) برج بيلوس: المقصود به معبد مدينة «بورسيبا» التي تقع جنوبي الحلة بحوالي عشرة اميال. وهو معبد الاله «نبو»، نقبت فيه بعثة المانية برئاسة العالم كولدوى سنة ١٩٠٢.

(٣) المجلبي: وهو تحريف لكلمة «المقلوب» ويقصد به بقايا زقورة بابل.

(٤) قناة الحي: وهي شط الغراف ذاتها.

(٥) خرائب عقرقوف: وهي خرائب مدينة «دور كوريغالزو» عاصمة الكشيين الذين اجتاحوا العراق من شمال شرقي العراق، وقضوا على السلالة البابلية الحاكمة الاولى، واسسوا لهم سلالة جديدة عدد ملوكها ستة وثلاثون ملكاً، وحكموا العراق في الفترة ١٧٣٠ - ١٥٩٥ قبل الميلاد. وما تزال زقورة هذه العاصمة شاخصة الى اليوم في منطقة عقرقوف غربي بغداد.

نزلنا على بعد عشرة اميال من الحلة، لكي ننقب في احدى الضفاف، حيث انبأنا رجال قاربنا بوجود كنز يمكن العثور عليه. ولقد سألتهم اذا كان هذا هو اعتقادهم، فلم لم يحاولوا البحث قبلاً عن هذا الكنز؟ وكان جوابهم قولهم «اننا لا نستطيع ان نفعل ذلك الا بمساعدة من الفرنجة»[٦]، وذلك هو الاعتقاد العام السائد في بلاد الشرق.

واذ سررت على أمل القيام باكتشافات من نوع آخر، فقد اعددت العدة لكل ما يحتاج اليه، بشكل ينطوي على الرغبة في ذلك. وهكذا بدأت عملياتنا للتنقيب عند جوانب ربوة، يبلغ ارتفاعها زهاء عشرين قدماً فوق مستوى ارض السهل.

كانت التربة تتألف من طين ناعم، ولذلك لم نجابه سوى مشقة ضئيلة في رفعها. وعلى عمق ثلاثة او اربعة اقدام جوزي عمالنا بعثورهم على بعض التوابيت. كانت تلك التوابيت معمولة من الطين المجفف، يبلغ طول الواحد منها زهاء ستة اقدام، وعرضه قدمان ونصف القدم.

ويوجد في الجزء الاعلى منه، وهو اعرض من الجزء الاسفل بشكل ظاهر، فراغ ترك بشكل اوسع وبصور كافية لكي يسمح بوضع الجثة فيه، ومن ثم يتم اغلاقه بصفة واضحة بغطاء يثبت داخل اخدود، ويطلى من فوقه بالقار.

فتحنا احد هذه التوابيت فلم نجد فيه من الهيكل البشري الذي كان يضمه قبلاً سوى عظام الاطراف والجمجمة. وما ان مست تلك العظام حتى تحولت الى غبار، ولست اشك في ان هذه التوابيت كانت تعود

---

(٦) كان العرب المسلمون يطلقون على الاوربيين اسم «الفرنجة» وهذه التسمية انما قصد بها الفرنسيون بصفة خاصة.

الى العصر البابلي. وقد اشار «هير ودوت»[٧] الى ان هذه الجثث كانت تدهن بالزيت، ومن ثم تقبر وسط مناحات صاخبة، على غرار المصريين الذين كانوا يتبعون صفة مماثلة في دفن الموتى.

ولقد قيل ان مثل هذه الرمم «فرثية»[٨] ولكن يصعب تصديق ذلك، لان الفرثيين كانوا يغطسون الجثة اول الامر بماء الفضة ومن ثم تودع الرمم في اصص. وما يزال يعثر على مثل هذه الاصص في الروابي التي تتناثر على سطح الارض، وترتفع مسافة ما فوق المستوى الاعتيادي للسهول. وكان يجري ذلك بقصد الحيلولة دون ان تعبث بها مياه الانهار. وهذه القاعدة ذاتها هي التي حملت البابليين على اختيار مثل هذه الضفاف المرتفعة للغرض ذاته.

وصلنا بعد ايام قليلة الى «الحلة» التي تعتبر - بعد بغداد والبصرة - اكبر مدينة في الباشوية[٩]، حيث تدلل الجوامع حسنة البناء، والاسواق الواسعة على ثرائها. هنالك سور واطىء اقيم على سطح مائل تحيط به الابراج الى امتداد القمة، وتطوقه حصون تنطلق منها المدفعية لحماية المدينة من هجمات البدو. كما ان منزل الحاكم فيها محصن تحصيناً قوياً. أما الابنية الاخرى فهي نظيفة، ومعظمها مشيدة بالآجر المجلوب من خرائب بابل المجاورة.

---

(٧) هيرودوت: مؤرخ اغريقي ولد بمدينة هاليكارناسوس في حدود سنة ٤٨٤ ق.م. قام برحلات في مصر وبلاد الرافدين وايران وجزءاً من اوربا. وقد ترجمنا القسم الخاص بالعراق من تأريخه الكبير ونشرناه مع الشروح والتعليقات عليه في العدد الثالث من مجلة «المورد»، لسنة ١٩٧٩.

(٨) الفرثيون: اقوام موطنها في روسيا الحالية، استوطنت منطقة هركانيا جنوبي شرقي بحر قزوين. وفي سنة ٢٥٠ قبل الميلاد قام «ارشاق الفرثي» بتأسيس سلالة حاكمة استمرت حتى سنة ٢٢٦ ميلادية، وقد تغلبت هذه السلالة على العراق الى ان انقرضت على ايدي الساسانيين. وقد اكدت التنقيبات الاثرية على ان الفرثيين قد اعتادوا ان يضعوا رمم موتاهم في جرار من الفخار.

(٩) يقصد بها باشوية العراق اي تولية الحكم في العهد العثماني لوال يحمل لقب باشا، ويكون العراق كله خاضعاً لحكمه، بما في ذلك الولاة الذين يعينون في البصرة والموصل. وكان الاتراك يطلقون لقب«باشات» بمعنى الباشوية على اقليم العراق كله.

يمر نهر الفرات خلال المدينة، ويقسمها الى قسمين متساويين تقريباً، يربط بينهما جسر مصنوع من القوارب. ويكون عرض النهر هنا ثلثمائة وخمسة وثمانين قدماً، وعمقه وسط القناة اربع قامات، وسرعة جريانه ثلاثة اميال وثلاثة ارباع الميل في الساعة الواحدة. وتتخذ مياهه الداكنة العكرة مجراها السريع الصامت في دوامات دوارة.

وتستعمل لعبور النهر جلود منفوخة، ولا يمكن مقاومة تيار النهر الا بمشقة وجهد. ويشاهد عدد من السباحين، وهم في عراء تام، ينتشرون على سطح الماء، في حين يعبر الآخرون النهر أما على اطواف من القصب، أو في قفف تصنع من اغصان مجدولة وتغلف بالجلود.

يقدر عدد سكان الحلة بحوالي خمسة وعشرين الف نسمة، معظمهم من العرب، وان كان يوجد بينهم عدد من الارمن، واليهود، والمسيحيين. وهناك جملة من الجيورجيين والالبانيين المرتبطين بالحكومة، وتراهم يتصرفون على الدوام تصرفات سيئة بصفة بارزة، اذ يقتلون خصومهم، ويغتال بعضهم بعضاً دون عقاب من الحكومة.

ويتم اختيار «البك» من بيت «باشا بغداد»، ونتيجة لذلك تكون الحكومة على حد المساواة في مثل هذا الاختيار.

وتتألف القوة القائمة في المدينة من حوالي ثلثمائة من المستخدمين العسكريين. ولكن في الاوقات التي ينفجر فيها الاضطراب تقدم بغداد لهم المساندة العسكرية.

واسعار الفاكهة، والحبوب، ومواد المعيشة الاخرى، رخيصة، وهذه المواد وفيرة في الحلة. وتصل الزوارق الى هنا، من انحاء مختلفة من

البلاد، وتكون القوارب الوافدة من الموانىء الشمالية للجزيرة، محملة بالرز عادة، أمـا التي ترد من «الملوم»[١٠] والبصـرة فانهـا تحمـل التمـور والاسماك والقهوة وغيرها.

●●●

الـوقت الآن هو شهر رمضان، ولذلك رفض ملاحو زورقي مواصلة اعمالهم، واذ ذاك تركت زورقي، وسكنت مع «محمـد اغـا» وهو تاجر ذكي من بغـداد، كان يقيم هنـا منذ عدة سنوات. وقد برهن على انه كان رفيقاً مقبولاً جداً من جانبي مدة بقائي معه. ولقد بدأت انا وضيفي منذ اول ليلة نحتسي اقـداح القهـوة، ونتجـاذب اطـراف الحـديث، وندخن. اما اثنـاء الليل فكان يأوي الى حرمه.

كنت جد، مبتهـج لفكـرة القيـام بزيارة جبار الكلدان[١١] ملكة المدائن، بابـل المتداعيـة، ولكي اتعقب اثر صاحبي، فقد امتطيت جواداً حصلت عليه، فعبرت الجسر الى الشاطىء المقابل، ومن ثم اتخذت طريقي عبر شوارع قذرة، وخـرجت من احـدى البوابات واهنة البناء الى الصحراء وما ان قطعت، وانا راكب، حوالي اربعة اميال ونصف الميل، عبر سهل يغمره طفـح النـترات، وتتقـاطعه آثار بعض القنوات القديمة، حتى وصلنا الى قاعدة «برس نمرود»[١٢]. وتؤلف هذه القاعدة شكلاً هرمياً، جوانبه شديدة الانحـدار، وعـرة ومهـدمـة بفعل السيول، ولقد تداعت قطع من الجدران على ارتفـاعـات مختلفـة، وعنـد القمة جزء منتصب قائم بحد ذاته، يمثل عن بعد مظهر حصن هائل.

---

(١٠) الملوم: قريـة او بليـدة صغيرة تقـع على نهر الفـرات في الطـريق بين مدينتي الـرميثـة والحمزة. وقد سميت بهذا الاسم لان خليطاً من افراد العشائر تجمعوا فيها وسكنوها لاول مرة.

(١١) الكلدان: لا يعرف على وجه الدقة مصدر هذه التسمية، ويبدو مما ورد في تأريخ هيرودوت ان الكلدانيين قد اطلق على كهنـة معبد بابل، ومن ثم اطلقت الكلمة في التوراة على سكان العراق القدامى بما فيهم السومريون حيث سميت عاصمتهم باسم «اور الكلدان».

(١٢) برس بيلوس: يقصد به معبد الاله «نبو» في بورسيبا الذي جدده بختنصر ملك بابل العظيم وكان يعرف لدى السومريين باسم «ئي زيدا» أي «البيت الرفيع».

ومــا ان ترجلت عن جوادي ، واودعتـه لدى ادلائي ، حتى تسلقت الخـرائب الى قمـة التـل التي ترتفـع بمقدار مائة وثمانين قدماً فوق مستوى السهل. كان يظهر من ذلك الارتفاع ما يلفت النظر حقاً، انها مدينة الحلة التي يلفهـا الضبـاب ، ويضفي عليهـا تلويناته التي تشبه لون الغزال كما هو الامر في الصحراء.

كانت تمتـد في ذات الاتجـاه تقريباً، بساتين وقرى «توماسيا»[١٣] التي تقابلها عند جوارها ارض تغمرها الاهوار، وقد بدت في بياض هامد.

والى الشمال من ذلك تقوم رابية «المجلبي» و «القرية»[١٤] التي وقفت عليهـا ، والتي يفـترض فيهـا بأنها تضم آثار معبد «بيلوس»[١٥] الذي وصفه هيرودوت بأنــه مربــع الــشكــل ، يبلغ طول كل جانـب منـه مائتي «ستـاديـا»[١٦]، وارتفـاعـه ثمانية طوابق ، ويكون الصعود اليه من الخارج. ولكن ضمن ذلـك كان يقـوم مذبـح كبـير مزين تزييناً فخماً بمتكأ نفيس ، ومـائـدة من الذهب الصلب. وقد كرس هذا المذبح لـ «جوبتر بيلوس»[١٧] لكنه مالبث، لاسباب لم يحدثنا التأريخ عنها، ان استحال بالتدريج الى انقاض[١٨].

---

(١٣) تومـاسيـا TOMASIA تسميـة اغـريقية اطلقت على المناطق المجاورة لبابل وبورسيبا والتي تحولت الى مستنقعات بفعل تراكم مياه الامطار فيها فضلاً عن تدفق مياه نهر الفرات اليها. وقد سبق لهيرودوت ان اطلق اسم «ارديكا» على هذه المنطقة ، اي ارض المستنقعات.

(١٤) كتبها المؤلف باسم القارة EL-KARA وهي تحريف لكلمة القرية.

(١٥) معبـد بيلوس : يقصـد به معبـد الاله مردوخ في بابل، وهو الذي عرف لدى البابليين باسم «ايسا غيلا» اي البيت «رفيع العماد».

(١٦) ستاديا : STADIA مقاس اغريقي للابعاد يبلغ طوله ٢٠٢ ياردة.

(١٧) جوبـتر بيلوس : هي التسمية الاغـريقيـة للاله مردوخ بن الاله «ايا» كبير آلهة بابل، وكان مقر عبادته في بابل.

(١٨) بدأ الخراب يدب في بابل بعد ان هجرها سيلوقس خليفة الاسكندر المقدوني، وبنى بدلاً عنهـا مدينـة سلوقيـة التي تقـع في الخـرائب المعروفة الآن باسم تل عمر على مقربة من الدورة جنـوبي بغـداد، وقـد جعلهـا عاصمة للدولة السلوقية التي اقامها في العراق الى ان سقطت بأيدي الفرثيين سنة ٢٥٠ق.م.

ومـا ان ترجلت عن جوادي ، واودعتـه لدى ادلائي ، حتى تسلقت الخـرائب الى قمـة التـل التي ترتفـع بمقدار مائة وثمانين قدماً فوق مستوى السهل. كان يظهر من ذلك الارتفاع ما يلفت النظر حقاً، انها مدينة الحلة التي يلفهـا الضبـاب ، ويضفي عليهـا تلويناته التي تشبه لون الغزال كما هو الامر في الصحراء.

كانت تمتـد في ذات الاتجـاه تقريباً ، بساتين وقرى «توماسيا»[١٣] التي تقابلها عند جوارها ارض تغمرها الاهوار، وقد بدت في بياض هامد.

والى الشمال من ذلك تقوم رابية «المجلبي» و«القرية»[١٤] التي وقفت عليهـا ، والتي يفـترض فيهـا بأنها تضم آثار معبد «بيلوس»[١٥] الذي وصفه هير ودوت بأنـه مربـع الـشكـل ، يبلغ طول كل جانـب منـه مائتي «ستـاديـا»[١٦] ، وارتفـاعـه ثمانية طوابق ، ويكون الصعود اليه من الخارج. ولكن ضمن ذلـك كان يقـوم مذبـح كبـير مزين تزييناً فخماً بمتكأ نفيس ، ومـائـدة من الذهب الصلب. وقد كرس هذا المذبح لـ «جوبتر بيلوس»[١٧] لكنه مالبث، لاسباب لم يحدثنا التأريخ عنها، ان استحال بالتدريج الى انقاض[١٨].

---

(١٣) توماسيا TOMASIA تسمية اغريقية اطلقت على المناطق المجاورة لبابل وبورسيبا والتي تحولت الى مستنقعات بفعل تراكم مياه الامطار فيها فضلاً عن تدفق مياه نهر الفرات اليها. وقد سبق لهيرودوت ان اطلق اسم «ارديكا» على هذه المنطقة ، اي ارض المستنقعات.

(١٤) كتبها المؤلف باسم القارة EL-KARA وهي تحريف لكلمة القرية.

(١٥) معبـد بيلوس : يقصـد به معبـد الاله مردوخ في بابل، وهو الذي عرف لدى البابليين باسم «ايسا غيلا» اي البيت «رفيع العماد».

(١٦) ستاديا : STADIA مقاس اغريقي للابعاد يبلغ طوله ٢٠٢ ياردة.

(١٧) جوبـتر بيلوس : هي التسمية الاغـريقيـة للاله مردوخ بن الاله «ايا» كبير آلهة بابل، وكان مقر عبادته في بابل.

(١٨) بدأ الخراب يدب في بابل بعد ان هجرها سيلوقس خليفة الاسكندر المقدوني، وبنى بدلاً عنها مدينـة سلوقيـة التي تقـع في الخـرائب المعروفة الآن باسم تل عمر على مقربة من الدورة جنوبي بغـداد، وقـد جعلهـا عاصمة للدولة السلوقية التي اقامها في العراق الى ان سقطت بأيدي الفرثيين سنة ٢٥٠ق.م.

وكان الاسكندر، قبل العصر المسيحي بثلاثة قرون، قد وطد عزمه على اصلاح هذا المعبد، لكن الموت عاجله قبل ان ينفذ ما اعتزمه.

ويسعى آخرون من الرحالين الاذكياء الى تشخيص خرائب برج بابل. وعلى أية حالة فلاتوجد سوى ادلة قليلة يمكن ايرادها للبرهنة على ان البت في هذه المسألة سيظل محاطاً بالشكوك، ولسوف اكتفي انا بوصف ماشاهدته، واترك للآخرين امر التأكد منه.

تبلغ مساحة محيط الرابية التي وقفت عليها الفي قدم، ويبدوبأن السقف كان برمته مؤلفاً من بناء واحد، أو ابنية عديدة، وكانت هذه الرابية محاطة قبلاً بسور ماتزال بقاياه ظاهرة في السهول القائمة تحتها.

وما تزال فوق قمة الرابية كتلة ارتفاعها اربعون قدماً، وسمكها ثلاثة عشر قدماً، بنيت من آجر اصفر اللون، مثبت بملاط متماسك، الى درجة ان ثلاثة صفوف منه وان كان لايزيد سمكها عن بوصة واحدة، يستحيل فصل الآجر منها إلا بتحطيمه.

ماتزال آثار حريق ظاهرة على السور ذاته، يبدو انه كان نتيجة ارتجاج عنيف متكرر. وقد اصاب الحريق اجزاء من السور، ترى متناثرة على وجه التل، وبذلك يظهر سطحه أزرق اللون رمادياً.

والواقع ان هناك اسباباً تدعو الى الاعتقاد، ومن فعل ذات العنصر في اماكن اخرى كثيرة، بأن التدمير النهائي للبناء قد حدث بفعل النار[١٩].

---

(١٩) يعزو الخبراء الذين درسوا الحريق الذي اصاب برج بابل وحوله الى آجر متصخر (صخريج) الى سقوط نيزك سماوي فوق البرج ففلقه واحال بعضاً من آجر بنائه الى صخر.

وليس في مستطاعنا ان نعزو الى سبب آخر، انهيار مثل هذه الكتل الضخمة، الى كومة من الخرائب التي تمثلها في الوقت الحاضر، والتي لايمكن تمييزها. ولما كانت هذه قد اختلطت بكتل اخرى من نوع اكثر خشونة، فاننا ما نزال نعثر على آجر يحمل كتابات بحروف مسمارية، وعلى قطع من الفخاريات، والقار، واجزاء اخرى من مادة شبه زجاجية، مطمورة في التراب.

يؤجر العرب انفسهم للتنقيب وسط الخرائب، ويكافأون على اعمالهم اذا ما عثروا على نقوش، واختام اسطوانية، وتمائم وما شاكلها، وفي الفترة التي وقعت زيارتي خلالها، استخدم احد اليهود فريقاً مؤلفاً من عشرين عاملاً، وذلك لانه تقوم تجارة نشطة بأمثال هذه الآثار في بغداد، والبصرة، وحلب.

وهذه الحفر التي ينزل اليها العمال، ويبلغ عمق البعض منها زهاء ثلاثين قدماً، بالاضافة الى وعورة الرابية، والتي تكشف عن التفاوت فيها، كل ذلك قد تسبب اما عن تداعي الانقاض، أو تقاطعها بشقوق عميقة، حدثت بفعل اندفاع سيول جارفة.

على مقربة من البرس توجد «قبة»[٢٠] لضريح يحمل اسم «ابراهيم الخليل»[٢١]. ويحتفظ العرب باسطورة مفادها ان ابراهيم استطاع ان يلقي

---

(٢٠) كتب المؤلف كلمة «قبة» باللفظ العربي والحروف الانكليزية KUBBET.

(٢١) ذكره المؤلف باسم ابراهيم غوليل IBRAHIM GHOLIL.

وهناك اسطورة تقول ان القاء ابراهيم الخليل في النار من قبل والده «آزر» انما كان في مدينة بورسيبا ذاتها، وان ابراهيم قد انتقم من ابيه اذ خرج من النار سالماً ومن ثم قذف به في تلك النار، وان «نمرود» هو ملك بورسيبا، وهو والد ابراهيم نفسه.

بنمرود في ذات الاتون الملتهب الذي استطاع هو نفسه ان ينجو منه، دون ان يصاب بأذى. ولقد أنبأني دليلي ان «نمرود» هذا قد اخذ اسمه من اسم «النمر» لانه رضع اثناء طفولته من ثدي «نمرة»!

واذ قارب المساء ان يحل، عدت الى «الحلة»، وكانت نتيجة ذلك ان ريحاً شديدة قد اقتلعت جسر القوارب، ولذلك عبرنا النهر بأحدى القفف المغلفة بالقماش. وهذه القفف تشبه، في مظاهرها الاخرى، تلك التي اتى هيرودوت على وصفها. ومثلما اشار الى ذلك فحتى هذا اليوم نرى ان احد المجاديف يندفع نحو القفة، في حين ينطلق المجداف الآخر منها.

في صباح اليوم التالي ابتعدت زهاء الميلين عن المدينة، وذلك بقصد زيارة الروابي التي تضم الاطلال الشرقية من بابل. وهذه الاطلال ثلاثة تتميز بمساحتها عن بقية الاطلال الاخرى، وتعرف باسماء «الحمراء»[٢٢] و«المجلبي»، والقصر[٢٣].

فالقصر او القلعة يفترض فيها بأنها كانت تحتل موقع القصر الكبير الذي كانت تسكنه سمراميس[٢٤]، وتغطي انقاضه مساحة من الارض

---

(٢٢) الحمراء أو «الحميرة» سميت بذلك للونها الاحمر وهي عبارة عن ثلاثة تلول تقع على مقربة من السور الداخلي للمدينة. وقد ثبت ان هذه التلول الثلاثة انقاض ملهى يوناني يعتقد بانه شيد بعد ان فتح الاسكندر الكبير مدينة بابل.

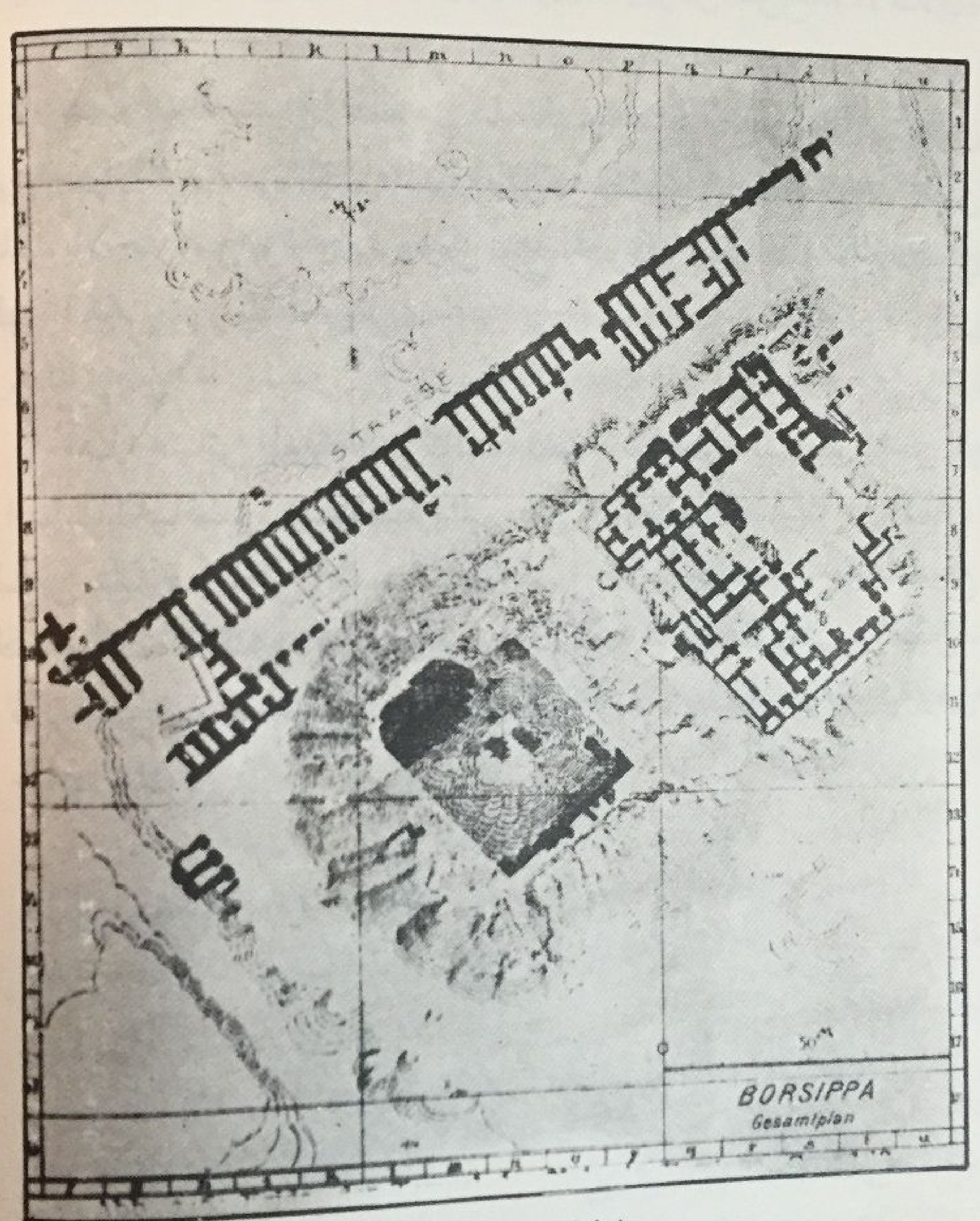
(٢٣) القصر هو في الواقع القصر الصيفي الذي شيده الملك بختنصر وهو واحد من ثلاثة قصور اقامها هذا الملك في بابل وقد عثر المنبقون في انقاض هذا القصر على كوى تنفذ الى الاعلى للتهوية فسموه بالقصر الصيفي.

(٢٤) سمر اميس: هو الاسم الذي اطلقه اليونانيون على زوجة أددينرير الثالث ملك آشور. اما اسمها الحقيقي فهو «سمورامات».

يبلغ طولها نصف ميل، وعرضها مثل ذلك تقريباً، وهو يرتفع الى معدل تسعين قدماً فوق مستوى السهل. ترى كم كانت هائلة ابعاد ذلك البناء، الذي ما يزال بعد مثل هذه العصور الطويلة، يعرض مثل هذه الاطلال؟

يبدو ان القسم الاعظم من هذا البناء مشيد باللبن، الذي يحتوي على اجزاء كثيرة من القش المفروم، ولكن الشيء الواضح ان هذا اللبن مغلف بالآجر ومن نوع جيد. ومن نواح أخر فأن هذا الطلل لا يختلف في مظهره العام عن رابية «البرس».

أما الجنائن المعلقة التي كانت ملتصقة بالقصر، فلم يبق لها من اثر في الوقت الحاضر. ونلاحظ بشيء من الدهشة ان منقبينا عن الآثار، والذين يتشوقون الى الامساك بأي دليل قد يقودهم الى تحديد موقع الجنائن المعلقة، كثيراً ما كانوا يتشبثون - نتيجة الحاجة الى شيء افضل - في قفر اجرد بشجرة طرفاء نمت فوق قمة الرابية، بصفة غير طفيلية وهي في عزلتها تلك.



مخطط مدينة بورسيبا

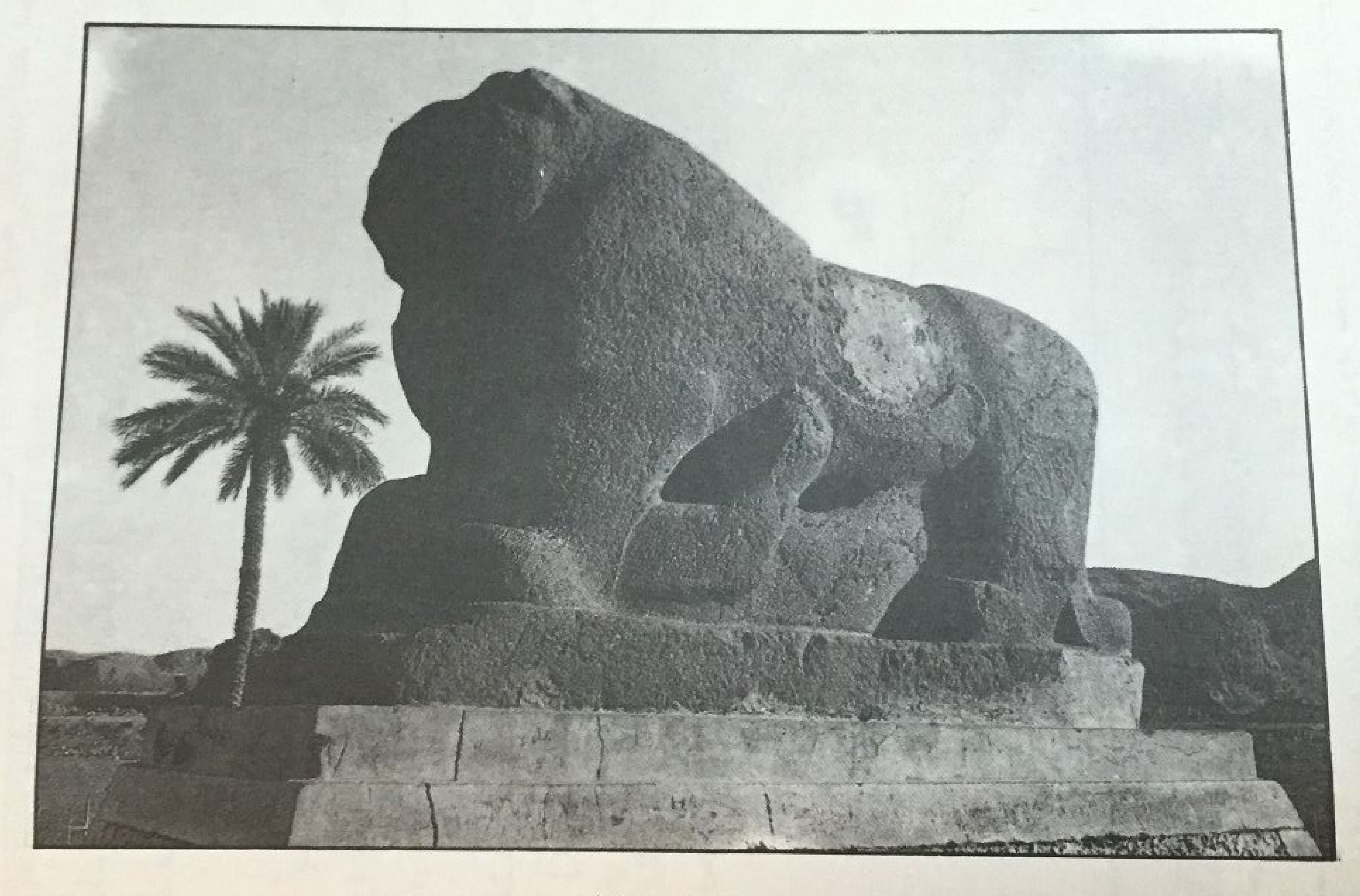
ولما كان الشيء الوحيد الحي والمنظور في الموضع الذي كانت فيه عشرات الألوف من اشجار الطرفاء تحتفظ بتأثيرها في يوم من الايام، فان هذا لابد ان يكون من المواضيع المناسبة التي ينبغي امعان النظر فيها، والاهتمام بها. واشجار الطرفاء هذه تختلف هي الاخرى في بعض النواحي عن الطرفاء المألوفة في الصحراء، غير ان ذات النوع يكثر وجوده على ضفاف نهر الفرات.

أية أحاسيس لا تتيقظ في صدر مسافر كان عليه، قبل قرون خلت من هذا اليوم، ان يقف تحت شجرة تتوج قمة رابية تضم اطلال «قديسنا بول»[٢٥]. فعلى بعد ياردات قليلة الى الناحية الشرقية من هذه الشجرة، يقوم تمثال اسد، ينتصب فوق جسم انسان منبطح. وهذا التمثال هائل الحجم لكنه نحت بصفة غير منتظمة. ويبرز الموضع الذي يحتله ظاهراً للعيان، وهو يتحدث قليلاً عن حالة الفنون في ذلك العصر. وهناك عمامة خشنة فجة تغطي رأس الرجل، كما لف الاسد هو الآخر جزئياً برداء[٢٦].

---

(٢٥) سان باول ST. PAVL اول مبشر ولاهوتي مسيحي يأتي في الدرجة الثانية بعد المسيح (ع) وقد حوت رسائله اسس تعاليمه واذكاره عن المسيحية. ويعتبر رئيس القديسين ليس في انكلترا حسب بل وفي العالم الاوربي.

(٢٦) هذا هو التمثال المعروف باسم «اسد بابل» وهو منحوت من حجر الغرانيت الاسود. وقد سرق احد المنقبين الالمان، قبل الحرب العالمية الاولى، رأس التمثال، بأن اقتطعه، وحمله معه الى برلين، وهو معروض الآن في قاعة الآثار البابلية بمتحف برلين.



تمثال اسد بابل

لم أرَ شيئاً استطيع ان اشخص به هذه المجموعة وفقاً لما قصه «دانيال»[٢٧]. فعلى النقيض من ذلك نرى ان وضع الرجل، وكذلك حالة الاسد الذي لف برداء، مما يناقض تلك الحكاية. ومهما يكن الامر فقد ابيت ان اهضم قائمة أولئك الافراد الذين سبق لهم ان زاروا هذه الاطلال وشاهدوها.

يؤلف المجلبي رابية مستطيلة الشكل يبلغ طول كل جانب منها مائتين وخمسين قدماً. وهنا، وكما كان الامر بالنسبة الى اهرام مصر ومباني «برسيبوليس»[٢٨] تتقابل الجوانب مع نقاط رئيسة. وهي ترى عن بعد، تحمل ذات المظهر المتهدم والمتداعي، مثل بقية الروابي الاخرى.

فالحافة العليا، وان كانت منبسطة الا انها جد متعرجة. وهنا ايضاً توجد جدران، ودلائل اخرى على الابنية. على ان فعل الزمان، والعناصر الطبيعية، وما انضم اليها من يد الانسان المخربة، كل هذه قد تركت آثارها التدميرية المعتادة، فالشق العميق الحاصل في الجهة الشرقية الجنوبية يشير الى انه كان عرضة لرجة طبيعية مدمرة.

---

(٢٧) دانيال: هو النبي دانيال ويؤلف حديثه «سفر دانيال» جزءاً مهماً من التوراة. ففي هذا السفر تحدث دانيال عن خرافة تقول ان بليشاصر، آخر ملوك بابل، عندما كان جالساً في قصره اذ ظهرت اصابع انسان وكتبت على حائط القصر كلمات لم يستطع احد ان يفسرها، فاستدعى الملك اليه دانيال وكان تفسيره لتلك الكتابة قوله «ان الرب قد احصى ملكك وانهاه، وانك وزنت بالموازين فوجدت ناقصا، وان مملكتك قد قسمت واعطيت لماذي وفارس» وبذلك زرع دانيال الذعر في نفس الملك البابلي، وجاء هذا القول من دانيال في الوقت الذي كان فيه اليهود في بابل يتآمرون مع الفرس الى ان هيأوا لملك الاخمينيين كورش فرصة الهجوم على بابل وتدميرها سنة ٥٣٨ق.م.

(٢٨) برسيبولس PERSIPOLIS هو الاسم الذي اطلقه اليونانيون ومعناه «مدينة الفرس» على «سوسة» عاصمة السلالة الاخمينية التي حكمت بلاد فارس والعراق خلال القرن السادس قبل الميلاد. وتقع «سوسة» على بعد ثلاثين ميلاً شمالي شرقي مدينة «شيراز».

ما أن غادرت المجلبي، واتجهت نحـو الشرق، حتى وصلت وانا راكب بعد ساعة الى رابية هرمية الشكل يبلغ ارتفاعها سبعين قدماً، وطولها حوالي ثلثمائة يارد، وهي لا تختلف بالآجر الذي شيدت منه، عن القصر. غير انني اتصور، من ملاحظة موقع هذه الرابية على شفير الانقاض، بأنه ليس مستبعداً، ان كانت هذه تؤلف جزءاً من الجدران الطويلة البادية للعيان.

كل ما بقي من بابل الآن، عبارة عن روابي لا شكل لها، وفوق هذه الروابي تأخذ عواصف الصحراء الحارقة طريقها، ولذلك بدت هذه الروابي ممزقة ومتهدمة، ولم يبق وراء آثارها الجبارة شيء يذكر فكر المسافر بسعتها وعظمتها السابقتين.

لقد راح مختلف الرحالين والجغرافيين ينقبون بجهد بالغ في التربة الهشة، اوعن طريق المقارنة المحضة لكي يشخصوا رابية المجلبي مع بقايا «برج بابل»[٢٩]. وتطلع آخرون غيرهم ايضاً الى تحديد موقع بناية برس نمرود الشهيرة. ترى هل اتصور ان ذلك الجهد، او البحث، اوما وقع تحت نظري من شأنه ان يقرر المسألة دون التأكد منها؟ ولكن عدا ما تحدثت عنه فانني لم أرَ شيئاً من شأنه ان يضمن لي تكوين رأي قاطع في الموضوع. وبعد تحرٍ دقيق اجد نفسي مضطراً الى الاعتراف بأنني لم اتوصل الى نتيجة مرضية.

فماعدا سعة الآثار فلم أرَ سوى الشيء القليل الذي يؤكد تطلعنا الى بقايا كاملة لذلك البرج. وماعدا بلبلة الالسن، قيل لنا ان البابليين

---

(٢٩) برج بابل هو الوصف الذي اعطته التوراة لزقورة بابل التي كانت تتألف من سبعة طوابق يرقي اليها بثلاثة سلالم وهي ترتفع الى حوالي اثنين وتسعين متراً وقاعدته مربعة الشكل (٩١،٥٥ × ٩١،٥٥ متراً)، وهي تقع الى الشمال قليلاً من معبد «الساغيلا». والاسم البابلي لهذه الزقورة هو «ئي - تمن - آي - إي» ومعناه «بيت اساس السماء والارض».

قد كفوا عن مواصلة اعمالهم. وان هناك سبباً يدعو الى الاعتقاد بأن سكان المدينة الواسعة التي تبرز بمبانيها، لم يسمحوا لها ان تغدو على شكل اصغر من رابية بغرض تشويهها. بل على العكس من ذلك انهم عمدوا الى استخدام مقدار جديد من المواد التي بنيت منها، حيث ذكر لنا «سفر الخليقة»: (اية ٣)، ان تلك المواد كانت من الآجر.

لم أجد سبباً يدعو الى الشك في سعة الحدود التي رسمها الجغرافيون القدامى لهذه المدينة. فالمسافة بين برس نمرود والحمراء تبلغ ثلاثة عشر ميلاً وهذه المسافة عبارة عن قطر دائرة تناثرت فيها الروابي، وكتل الانقاض في كل مكان، وليست حدودها مناقضة لما ذكره «سترابو» وغيره من المؤرخين[٣٠].

اشتريت اثناء مكوثي بين الخرائب جملة من الاختام الاسطوانية، المصنوعة من افخر انواع الطين، وقد بصمت سطوحها بحروف مسمارية واضحة. والذي اتصوره ان في مقدوري ان اصنع مقارنة مدهشة بين هذه الحروف المسمارية والحروف الصينية.

لقد كانت بلاد بابل، وكانت هذه المدينة هي عاصمتها قبلاً، مدينة - مثل بلاد مصر - بكل اهميتها الى النهرين العظيمين اللذين يرويان اراضيها. ذلك ان نهري دجلة والفرات ينبعان معاً من جبال ارمينيا، ويجريان متوازيين عند قواعد هضبة القفقاس الكبرى، حيث يتلقف نهر دجلة مياه عدد لا يحصى من الجداول الفرعية، ثم يأخذ مجراه العام باتجاه الخليج العربي تقريباً.

---

(٣٠) سترابو: مؤرخ وجغرافي يوناني شهير ولد سنة ٦٣ ق. م. وتوفي سنة ٢١ ميلادية، درس في آسيا الصغرى واليونان وروما وفي الاسكندرية بمصر، وقام بعد ذلك بسياحة واسعة في آسيا وافريقيا واوربا، ودون مشاهداته عن هذه السياحة في كتاب يتألف من سبعة عشر مجلداً.

وانحدار نهر دجلة سريع جداً. وعلى خلاف الرأي الذي يقول به الجغرافيون، والذين يعتبرونه منحرفاً قليلاً عن الخط المستقيم، فان اتجاه النهر متعرج ومتفرع جداً، وذلك نتيجة الاراضي المتشققة والصخرية التي يجري فيها. والواقع ان التواءات النهر في بعض الاحيان تكون حادة الى درجة انها تؤلف زاوية حادة تقريباً. ولذلك فانه يأخذ - اكثر من نهر الفرات الذي ينساب في مستوى عام - صفة اخدود في جبل مرتفع، ثم يهبط ويرتفع بسرعة فائقة، كما يلاحظ ذلك في جميع الانهار التي يكون لها مجرى قصير ومنحدر.

ولهذا السبب يطغى النهر الفائض، ولكن لمسافة قصيرة، عند مدينة القرنة، وهي النقطة التي يلتقي النهران عندها، الى ان يصل الى «نغيب»[31] على نهر الفرات، لكنه لا يتجاوز «ارجيا»[32] على نهر دجلة. ولا يعرف السكان المحليون اسم «دجلة» وانما يحتفظون باسم «الدجيل»[33] الذي يطلقونه على القسم الاعلى من النهر، واسم «اماسير»[34] الذي يسمون به القسم الاسفل منه.

أما نهر الفرات فانه يدعى على امتداد مجراه بنفس الاسم «الفرات».

---

(٣١) ذكرها المؤلف باسم «نغيب NAGAIB» والذي نعتقده انه يقصد بها «كرمة ام نخلة» التي تقع جنوبي «بحيرة الحمّار».

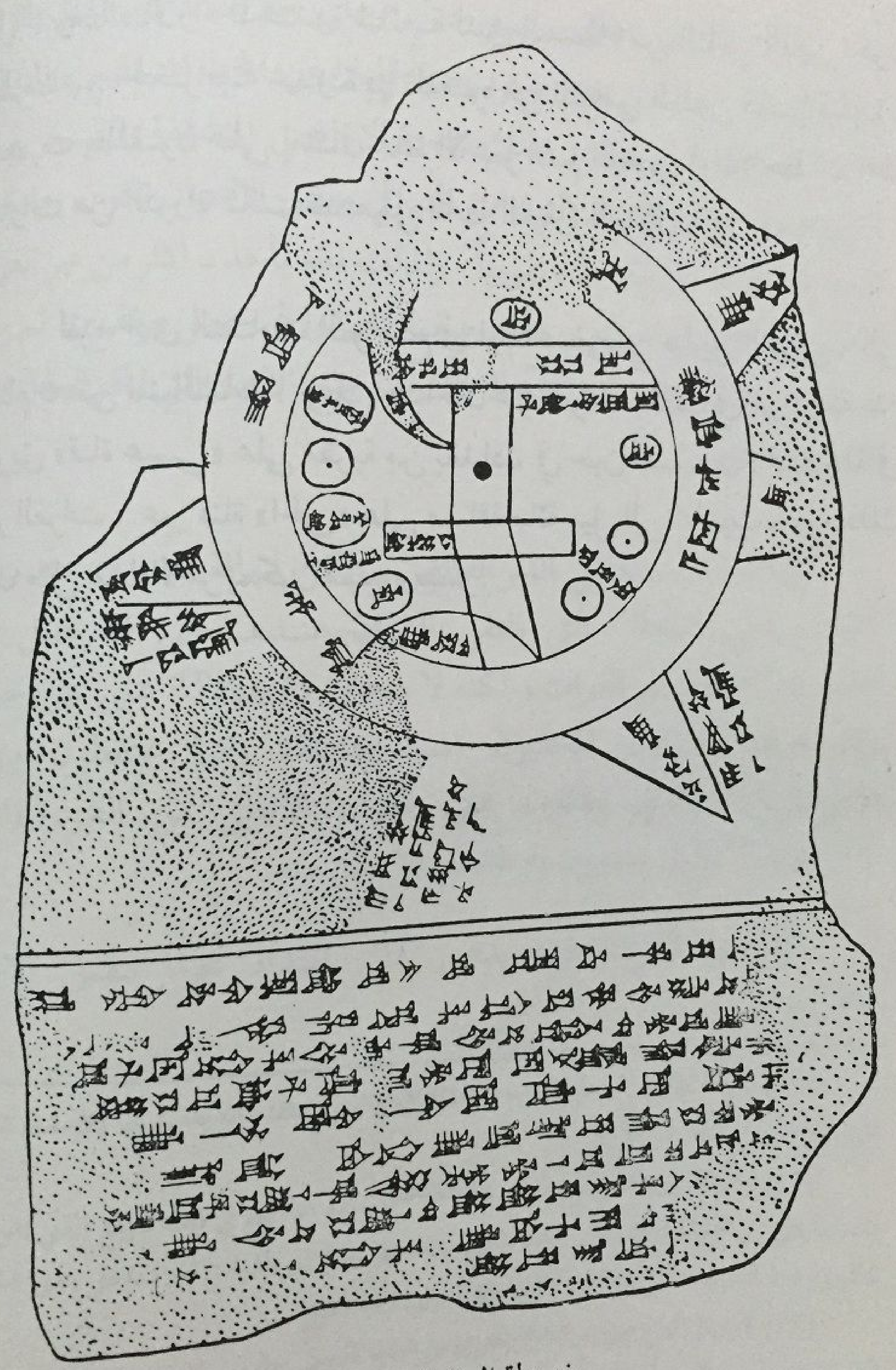
(٣٢) ذكرها المؤلف باسم ارجيا ARGIAH ونعتقد انها تقع في ذات الموقع الذي تقوم فيه «كرمة علي» في الوقت الحاضر حيث تلتقي مياه دجلة ومياه نهر الفرات المارة داخل «هور الحمار» لتكوين شط العرب الذي يبدأ من «كرمة علي» على وجه اصح.

(٣٣) الدجيل فرع من نهر دجلة يتفرع من ضفته اليمنى جنوبي بلد فيمر بمدينة «سميكة» التي تعرف باسم «الدجيل» ايضاً.

(٣٤) ذكره المؤلف باسم «اماسير AMASIR» ولم نجد تفسيراً لهذه التسمية أومصدراًلها على كثرة ما بحثنا فيه من الكتب التي تحدثت عن نهر دجلة بشكل مفصل.

وهـذه الآراء المحـددة شائعـة لدى البسطاء من الناس الذين تكون معلومـاتهم الجغـرافيـة محدودة بما تلقفـوه من النـاس الـذين كانـوا قبلهم، فالعـرب يطلقـون على امثـال هذه الانهـر اسم البحـر. والملاحظ ان جملة عبارات من التوراة كانت تستعمل ذات العبارة العامة.

لقـد ادى التفـاوت الـواضح في ارتفاع حوضي هذين النهرين، الى قيـام بعض المنـاقشات. وعلى هذا فان نهر الفرات يصب في نهر دجلة عن طريق «قناة عيسى» على مقربة من بغداد، في حين تصب مياه نهر دجلة في نهر الفرات، عبر قناة «الحي» على مسافة مائة ميل الى الجنوب، ومع ذلك فان مثل هذا الامر يمكن تفسيره بيسر.



خريطة العالم البابلية

تبـدأ ميـاه نهر دجلة في الارتفـاع خلال شهر تشرين الثاني من السنة ذلـك لان الامطـار تسقـط بكثـرة على بلاد ارمينيـا وكردستان ، فضلاً عن تساقط الثلوج على الجبال . ولذلك تستمر مياه النهر في الارتفاع حتى شهر آيـار، حيث تبلغ اعلى ارتفاع لها آنذاك ، ومن ثم تبدأ بالانخفاض تدريجياً ابتداءاً من شهر آب .

وتكون قناة الحي جافة ، كما تجف البرك والشواطىء في حوض النهر هي الاخرى ، ولذلك تسحب الزوارق ، وتدخر لحين ان يفيض النهر . ففي هذه الفـترة لا تنقـل ايـة تجارة لا في اعالي النهر ، ولا في اسافله ، وان نقلت فانها تكون قليلة جداً .

وتشعر كل من بلاد شرقي ارمينيا وكردستان بمقدم الصيف في وقت مبكر ، وتسقط الامطار هناك مبكرة ايضاً ، ولذلك ترتفع مياه نهر الفرات في وقت اسبق من ارتفاع مياه نهر دجلة ، غير ان مياه النهرين تنساب في سهل منحدر ويصبح مجراهما اللذان يتلقفان المياه بسرعة اقل ، اكثر بطأ .

ولغـرض تجنب هذا التفـاوت ، والاستفادة من المياه الفائضة من كلا النهرين ، فقد حفرت القنوات التي تربطهما احدهما بالآخر ، وهكذا يصبح النقص في ميـاههـما أمـراً ملمـوسـاً ، كما سأبـين ذلك في حديثي التالي عن الفيضان في بغداد .

أما في الوقت الحاضر فان حوضي النهرين يكونان مسدودين او ممتلئين .

انتهى شهر رمضان ، واذ ذاك تجمع رجال زورقنا مرة اخرى ، بعد ان انفقوا اجورهم في الملذات اثناء العيد ، وعندئذ استأذنت ، وانا آسف ، من

مضيفي الذي غمرني بكرمه، كي استأنف تحرياتي للنهر، حيث تعقبت من دون توقف قناة نهر «ملكا»[٣٥] وهكذا غادرت متوجهاً الى بغداد.

قبل ان يهاجم الاتراك من الفلوجة، كانت احدى القنوات «هي نهر عيسى» تمتد من الانبار الى بغداد، وتربط مياه نهر الفرات بمياه نهر دجلة، وكانت هذه القناة من اعظم القنوات الشمالية الاخرى، والتي تصل الى الانبار، أوقريباً منها، وبواسطتها تؤمن المواصلات بين النهرين ويتم تصريف المياه الفائضة لاي منهما.

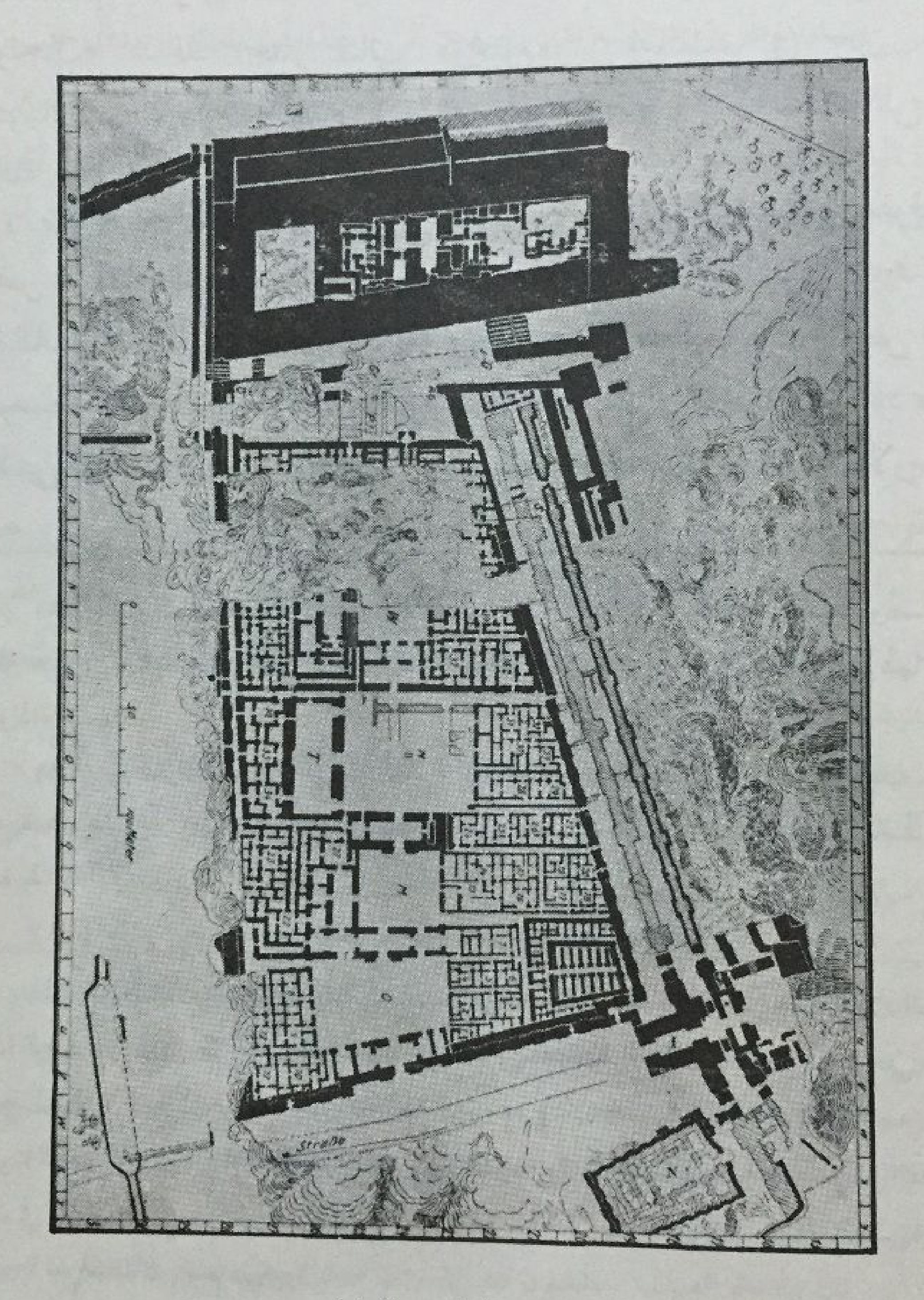
ولقد وصف «زينفون»[٣٦] هذه القنوات في زمانه، بأنها كانت عميقة، تمر خلالها سفن كبيرة محملة بالقمح، وذكر ان كل واحدة منها كانت تبعد عن الاخرى بمسافة فرسخ. ولاحظ ابو الفداء»[٣٧] ان نهر عيسى يأخذ مياهه من نهر الفرات في الموقع الذي تقع فيه مدينة الانبار، وذلك عبر قسم ضيق من الجزيرة، الى نهر دجلة الذي تصب فيه مياه نهر الفرات، ويكون مصبها واطئاً كثير المستنقعات، وعلى بعد حوالي ثلاثة اميال من بغداد.

---

(٣٥) نهر ملكا او الملك وهو نهر قديم كان معروفاً لدى البابليين، يتفرع من نهر الفرات جنوبي مدينة الانبار ثم يسير باتجاه الجنوب الشرقي فيصل الناحية الغربية من سلوقية «تل عمر الآن» ومن ثم يجري جنوباً حتى يصل الى مدينة الكوفة.

(٣٦) زينفون XENOPHON (٤٤٤ - ٣٥٩ ق.م) سياسي، ومحارب، وفيلسوف يوناني، غامر بقيادة عشرة آلاف رجل من اليونان الى العراق لمساعدة كورش الصغير ملك الاخمينيين في عيلام ضد اخيه اردشير الثاني. فلما انتصر اردشير في تلك الحرب عاد زينفون برجاله الباقين على قيد الحياة، من بابل صاعداً بمحاذاة نهر دجلة الى آسيا الصغرى ومنها الى اليونان وقد وصف حملته تلك في كتاب عنوانه «الصعود (اناباسيس ANABASIS)».

(٣٧) ابو الفداء: عماد الدين اسماعيل بن علي الايوبي (١٢٧٣ - ١٣٣١م) بن الملك الافضل. ولد في دمشق وشارك اسرته في محاربة الصليبيين، وزار مصر وبلاد الشام ووضع عدة مؤلفات من اشهرها «تقويم البلدان» و«المختصر في اخبار البشر».



مخطط مدينة بابل

أما القنوات الثلاث الاخرى الكبيرة فهي «كلواذا»[٣٨] و«صرصر»[٣٩] و«ملك»[٤٠] والقناتاة الاخيرتان مطمورتان بالطمى، وكان «تراجان»[٤١] قد اجتاز قناتي «ريجيوم»[٤٢] ومالك، في حين حفر «جوليان»[٤٣] فرعاً من القناة الاخيرة، عن طريقها دخل اسطوله الى نهر دجلة.

لم تعد توجد آثار ظاهرة لنهر عيسى، لكنني اكتشفت في عقرقوف بعض الروابي التي قد تكون، من شكل موقعها، بقايا ضفاف ذلك النهر. ولما كانت المسافة بين النهرين اربعة وثلاثين ميلاً حسب، وان الارض التي تتوسط تلك المسافة واطئة ذات مستنقعات، فغالباً ما تفيض مستودعات الطمى بالماء، وتربط بينهما سوية. وفي بعض المواسم يدع السكان الارمات

---

(٣٨) قناة كلواذا كتبها المؤلف خطأ باسم «كوثر» كانت تأخذ الماء من نهر ديالى وتصب في دجلة جنوبي بغداد، ويرجح ان مصبها في منطقة «الزوية» الحالية التي كانت تقوم فيها قرية «كلواذا» نفسها.

(٣٩) نهر صرصر : فرع من نهر الصراة او لعله هو نهر الصراة نفسه وكان يقوم عليه، قبل بناء بغداد على يد الخليفة ابي جعفر المنصور، دير يعرف باسم دير «عمر صليبيا» كما قامت عليه بليدة بذات الاسم.

(٤٠) ملك : هو نفسه نهر الملك أوملكا الذي مرت الاشادة اليه في شرح سابق.

(٤١) تراجان : من اباطرة الرومان، تولى الحكم في الفترة ٩٧ - ١١٧م غزا بلاد العراق قادما اليها عبر طريق نهر الفرات متجهاً الى المدائن لفتحها. وسار اسطوله في دجلة حتى دخل الخليج العربي، ووصل الى شواطىء الجزيرة العربية، وكان يطمع في الوصول الى الهند.

(٤٢) قناة ريجيوم **REGIUM** فرع من نهر الملك، وكان نهر الملك الذي ينبع من الفلوجة يصب في دجلة جنوبي نهر صرصر بمقدار خمسة عشر كيلومتراً وقد سميت باسم مدينة على مقربة من روما تعرف الآن باسم «ريجيو».

(٤٣) جوليان، امبراطور روما، حكم في الفترة ٣٦١ - ٣٦٣م، حاول افتتاح القسم الشمالي الغربي من العراق، لكنه هزم في المعركة مع الساسانيين، واصيب بجرح فتخلى عن الحرب وشرع بالانسحاب، وقد مات في ٢٦ حزيران سنة ٣٦٣م بعد جرحه بمدة سنة، وانتخب من بعده رئيس حرسه «جوفيان» امبراطوراً على روما.

تمر من بوابات بغداد الى الفلوجة[٤٤].

وفي اثناء الفيضان الكبير الذي حدث سنة ١٨٣١ كانت الزوارق تمر على امتداد طريق مرتفع من بغداد الى الحلة مسافة اربعة وخمسين ميلاً، وهو طريق كان المسافرون يجدون فيه اثناء اوقات اخرى خانات جيدة البناء، وقرى. ففي مثل هذه الارض المنبسطة سرعان ما تملأ المياه الفائضة القنوات. غير اننا بعد ثمانية قرون لم نعد نتوقع العثور على اية آثار لتلك القنوات الانادراً.

لقد صمم والي بغدادداود باشا على تجديد هذه القنوات، لكن الموت حال دونه ودون مايريد. ولما كانت اجور العمل رخيصة، وطبيعة الارض تسهل عليه انجاز كل مايريد انجازه، فان سيطرته على الموارد لم تكن تواجه سوى مشقة قليلة في تنفيذ اغراضه. ولو انه استطاع ان ينجز ذلك لوفر الفوائد العظمى للبلاد. ذلك لان مردود مثل هذه الاعمال على التجارة امر واضح، في الوقت الذي سوف يتعاظم فيه امن البلاد بحمايتها من الفيضانات.

وفي عصور الماذيين والبابليين[٤٥] ادت الاعمال المماثلة، عن طريق ارواء البلاد، والحفاظ على مستوى صالح من المياه الى النهرين، الى تحويل ماهو الآن صحراء تقريباً الى بلاد خصبة مأهولة بالسكان[٤٦].

---

(٤٤) لسنا نعرف المصدر الذي اعتمد عليه المؤلف في ذكره هذا، لكننا نعتقد ان انتظام نهر الملك بين الفرات ودجلة ربما كان يسمح بمثل ذلك في مواسم الفيضان.

(٤٥) الماذيون: نسبة الى بلاد ماذي او ميديا MEDIA وهي اذربيجان الحالية المقسمة بين الروس والفرس. وقد استولى الماذيون على كل بلاد فارس، وتحالفوا مع البابليين في مهاجمة آشور والاستيلاء على نينوى وتدميرها سنة ٦١٢ ق.م.

(٤٦) عندما جاء العرب المسلمون العراق وهم يحملون راية الدين الاسلامي، لم تكن احوال العراق بأحسن مما كانت عليه خلال الفترة المظلمة ولكن العرب المسلمين سرعان ما حولوا تلك البلادالفقيرة الى مدن عامرة زاهرة بالحضارة والعلم، واحالوا ارض العراق الى جنة فيحاء كان يعيش فيها زهاء خمسين مليوناً. وما تزال آثار الانهار والقنوات التي كانت تمد اراضي العراق بالخير والعطاء ظاهرة الى الآن سواء على ضفاف دجلة ام الفرات ام غيرها من الروافد والفروع.

والانبار مدينة قديمة ورد ذكرها في التاريخ بأنها كانت موقع اهراء الحبوب لملوك فارس، ولقد عرفت فيما بعد باسم «الهاشمية»[٤٧]، من اسم الاسرة التي ينتمي اليها الخلفاء، وكانت مقراً صيفياً لهم.

اما عرب الوقت الحاضر فيطلقون عليها الآن اسم «فلوجة»[٤٨] وقد بقيت مدينة مزدهرة الى ان تمكن هولاكو بن جنكيزخان من الاستيلاء على بغداد، واذ ذاك اقدمت قواته على نهب هذه المدينة وتدميرها هي ومدينة «واسط» معها، ومنذ ذلك الوقت اهملت هاتان المدينتان والقنوات التي تحيط بهما. على ان مدينة الانبار ليست هي النقطة المفترضة لاقتراب النهرين احدهما من الآخر، ذلك لان المسافة بين اطلال «سلوقية»[٤٨] على الضفة اليمنى من نهر دجلة، وقرية «رافنيا»[٤٩] على الفرات، لاتزيد عن عشرة اميال.

تقوم اطلال عقرقوف[٥٠] على بعد ثمانية اميال من بغداد. وهي تؤلف كتلة منفردة من آجر يبلغ ارتفاعها مائتين وعشرين قدماً، وقطرها سبعين قدماً، وقد تناثرت في الارض المحيطة بها انقاض احدى المدن، وان مشابهة اسمها، واسلوب عمارتها، وهي من عصر متقدم جداً يحملني على الاعتقاد بأنها هي مدينة «اكد» التي وردت في الاسفار المقدسة، والتي تلفظ باسم «اكا» في احدى المخطوطات الآشورية: وعلى مقربة من هذا الموقع كانت تقوم «ليتاز»[٥٢] حيث قام العشرة آلاف على مقربة من هذه المدينة، باجتياز نهر دجلة[٥٢].

---

(٤٧) الهاشمية: كانت في الاصل تدعى «قصر بن هبيرة» وهو القائد العربي يزيد بن عمر بن هبيرة الذي بنى مدينة الكوفة وكان قصره هذا يقع على مقربة من جسر «سوار» - وهو فرع من الفرات، فلما استتب الامر للعباسيين نزلها ابو العباس السفاح وسماها باسم «الهاشمية»، وهو اسم للقصر الذي بناه هناك وقد توفي السفاح بالهاشمية ودفن فيها.

(٤٨) سلوقية : أسسها سلوقس الاول الذي ولي الحكم في العراق بعد وفاة الاسكندر الكبير، واصبحت عاصمة لهذه المملكة وهي تقع على بعد عشرين ميلاً جنوبي بغداد، في منطقة «الدورة» وتعرف خرائبها باسم «تل عمر».

(٤٩) رافنيا RAVENNEA : نرجح ان هذه التسمية رومانية الاصل ومأخوذة من مسيرة تراجان لفتح العراق. كما ان تحديد المؤلف بعد المسافة بين سلوقية ورافنيا بعشرة اميال لايستند الى اساس قط، الا اذا كانت رافنيا هذه تقع على نهر الملك وليس على نهر الفرات ذلك لان المسافة بين بغداد والفلوجة تبلغ ٥٨ كيلومتراً.

(٥٠) يقصد المؤلف بذلك زقورة كوريغالزو القائمة حتى الآن في عقرقوف. وقد اجرت مديرية الآثار بعض الترميمات فيها في سني الاربعينات.

(٥١) لا يوجد موقع مدينة «اكد» عاصمة الاكديين، في هذا الموضع كما توهم المؤلف ذلك.

فقد تأكد ان موقع «اكد» هو في المنطقة المعروفة باسم «قرية الدير» على مقربة من مدينة «اليوسفية».

أما ليتاز LITAZE فهي المدينة المعروفة لدى الاغريق باسم «ستياس» والتي يعتقد انها تقع شمالي بغداد وعلى مقربة من مدينة «بلد» الحالية.

(٥٢) قام بقايا العشرة آلاف يوناني الذين بقوا على قيد الحياة من جيش زينفون الذي جاء لنجدة كورش الثاني، بعبور نهر دجلة على جسر من القوارب قال عنه زينفون نفسه بأنه كان يقوم على سبعة وثلاثين قارباً. ومن هناك اتجهوا الى نهر «العظيم» ثم ساروا شمالاً وبمحاذاة نهر دجلة حتى وصلوا الى مناطق كردستان.

الفصل الثاني

مغادرة مضارب البدو الى بغداد، اوهام بصرية، قبر زبيدة، مظهر متحرك لاحدى القوافل المؤلف بسلي اصدقاءه البدو

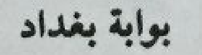
قبل ان ادخل مدينة الخلفاء، صممت على ان انتهز دعوة «الشيخ سبع» فأمضني أياماً قليلة مع قبيلته التي كانت مضاربها تقع على مسيرة اربعة ايام باتجاه الجنوب. ولقد امضيت مع افراد هذه القبيلة وقتاً ممتعاً في الصيد، وقذف «الجريد»[1] وممارسات اخرى. وفي النهاية وبأسف استقر رأيي على ان اغادر مضيفي الكرماء هؤلاء الى بغداد.

كانت الاميال القليلة من طريقنا الى تلك المدينة، تمر خلال ارض قفراء، لا نبت فيها ولا بشر. لم يكن عددنا ليزيد عن اربعة اشخاص. وكنا نقطع طريقنا في صمت، ونفزع احياناً لكل شيء يظهر في الافق، وذلك مثلما يرى الملاح وهو في رحلة غريبة عبر البحر.

---

(١) لعبة الجريد: نوع من السباق بين الفرسان الذين يمتطون ظهور الخيل، وهي قريبة من لعبة الهوكي، الشائعة في أوربا وأمريكا في الوقت الحاضر.

كنا نتصور احياناً جماعة من البدو يمتطون ظهور ابلهم، أوبروز مسافر يسير لوحده. غير ان هذا الوهم سرعان ما يتلاشى ويزول، حين نقترب، ونكتشف ان سبب مخاوفنا، اما ان يكون حجراً، اوبعض الشجيرات المتناثرة على الارض، والتي حولتها تأثيرات انكسار الاشعة المتضادة الى مثل تلك الاشكال غير الحقيقية.



بوابة بغداد

بزغت الشمس، وقد ظهرت بغداد، رغم انها على مسافة اميال كثيرة، وكأنها وسط الفضاء امامنا. ذلك ان تلوينات الصباح الوردية تغلق قبابها المذهبة ومآذنها، وغيرها من المعالم الفخمة للمنازل الشرقية وعظمتها، والواقع ان ذلك المنظر كان بهيجاً حقاً للعين التي اذاها النظر الطويل الى الصحراء القاحلة الغبراء.

اطلت التحديق في الاشكال المتباينة المتغيرة من بغداد، الى درجة انني رحت احلم بحقائقها. غير ان مثل هذا الحلم كان خاطفاً. ذلك لان الشمس بتأثير امتداد اشعتها المتزايدة، سرعان ما احالت الفضاء الى حالته الاعتيادية، ثم مالبث كل شيء ان اختفى عن الانظار، كرؤى جميلة ساحرة لم تترك في الذهن سوى ذكرى حية وطرية لوجودها.

ولكي نتجنب بعض الاراضي التي تغمرها المستنقعات، قمنا باستدارة طويلة، واضطررنا ان نقترب من المدينة من الناحية الشمالية، وبعد ان اجتزنا بستاناً كثيفاً من النخيل وصلنا قبالة قبر زبيدة.



قبر السيدة زبيدة

لقد طفرت الى مخيلتي آلوف الذكريات الفرحة عندما تطلعت الى ذلك البناء الشاخص البسيط الذي يضم رفات زوجة «هرون الرشيد»[٢] بطل قصص الف ليلة وليلة.

فهو يقوم فوق نجد منحدر داخل مقبرة واسعة خارج اسوار المدينة مباشرة، ويؤلف مجرد بناء مثمن الزوايا يبلغ قطره ثلاثين قدماً، معزز ببرج مستدق الطرف. ويكشف البناء السابق عن نوعين من النوافذ، يكون شكل النوع العالي منه منبسطاً، في حين يؤلف النوع الثاني عقداً مستدقاً، والبرج المستدق عبارة عن مخروط حاد، مزين من الخارج بتقسيمات محدبة تتماشى مع عقود مجوفة من الداخل. اما القسم الداخلي فتهيمن عليه ثلاثة مباني مستطيلة الشكل مطلية بالقار. ولقد نال احد الباشوات المتأخرين وزجته شرف دفنهما الى جانب احد الصلحاء من الفرس[٣]، حيث تؤكد الكتابة المنقوشة على المبنى بأن رفات هؤلاء قد اودعت هناك قبل تسعة قرون، وبموافقة الخليفة نفسه.

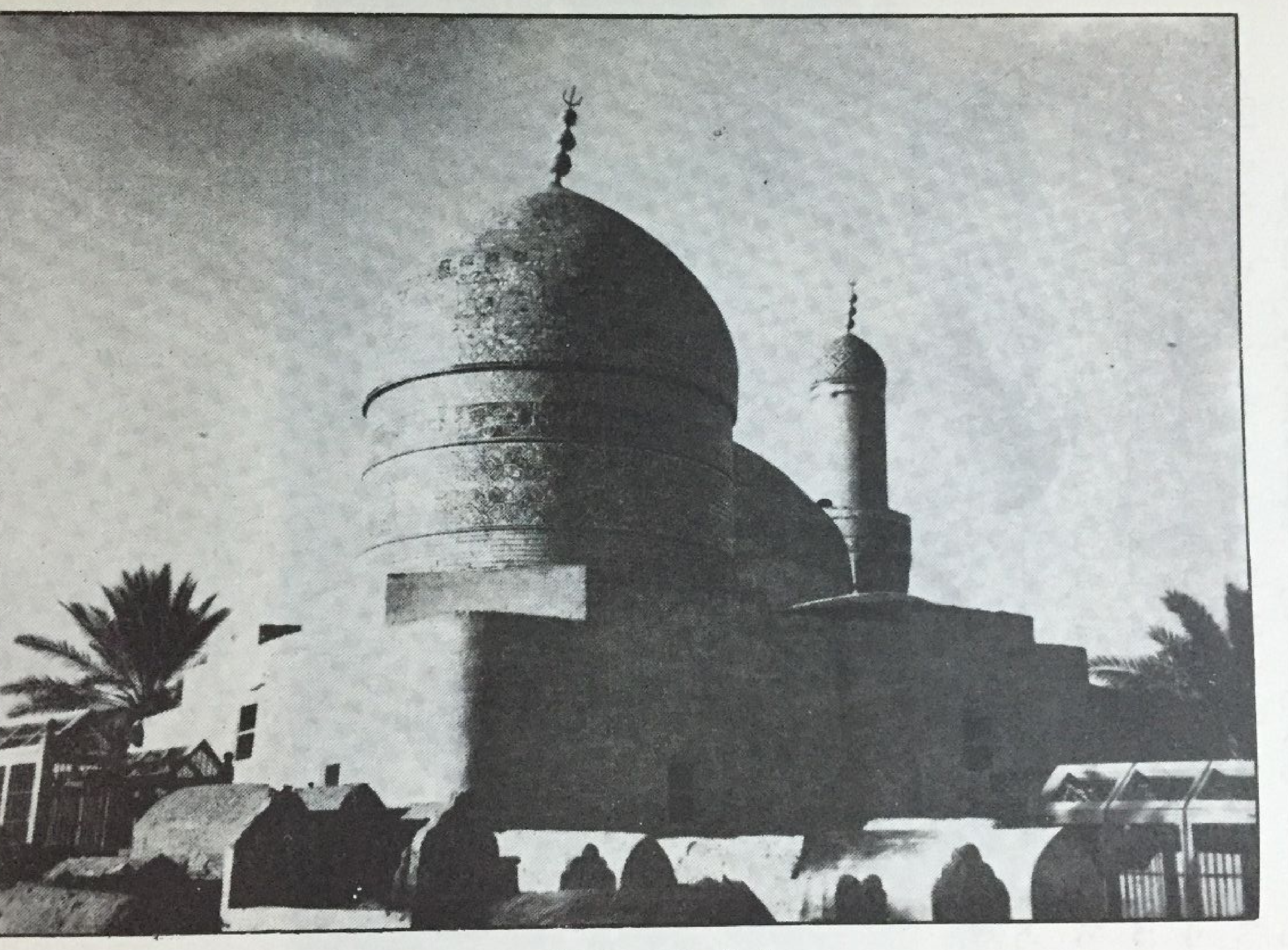
---

(٢) نسبة هذا القبر الى زبيدة زوجة الرشيد خطأ شائع لدى الناس حتى اليوم. والثابت تاريخياً ان هذا القبر يعود الى «زمرد خاتون» زوجة الخليفة المستضيء بالله وأم الخليفة الناصر لدين الله وقد توفيت سنة ٥٩٩هـ (١٢٠٢م).

(٣) يخلط المؤلف هنا ما بين مقبرة زمرد خاتون ومقبرة الشيخ معروف الكرخي. وكان «معروف» في الاصل من الفرس المجوس ثم اعتنق الاسلام واصبح من موالي علي بن موسى الرضا.

وعلى مقربة من قبر معروف الكرخي يوجد قبر الامير «علي» بن الخليفة العباسي الناصر لدين الله والذي توفي قبل وفاة والده.

أما الباشا الذي دفن في مقبرة زمرد خاتون فهو «حسن باشا زاده» والي بغداد (١٧٢٣ - ١٧٣٤م) وقد ذكر ذاك الرحالة الشيخ مصطفى كمال الدمشقي الذي زار بغداد سنة ١١٣٩هـ - ١٧٢٦م.



مرقد الشيخ معروف الكرخي

اقـتر بنـا من بوابة بغداد الشمالية الغربية، التى تؤدي اليها جملة من الطـرق المعبـدة جيـداً، والتي تصـل من كل الجهات الى مبنى قبر زبيدة. هنـاك جملة من البسـاتين مسورة بجدران من الطين تبر ز في صفة مجموعات متنـاثـرة، وهي مع بسـاتـين النخيـل تصـل حتى حدود النهر، وكلها بالغة الخضـرة، تدلـل على اقـترابنـا من المنـاطق المأهـولة. وبخلاف ذلك فان الـريف الـذي يقـع في الوسط يؤلف منبسطاً واسعاً من الارض، خالياً من الاشجـار او القـرى، سواء في ذلـك الارض الـرمـاديـة الغـامقة، او القفر الناصع البياض.



استراحة القافلة اثناء الطريق

كانت احدى القوافل[٤] القادمة من كرمنشاه، تعسكر منذ الليلة الماضية خارج الاسوار، وحين اقتربنا منها وجدناها تستعد لدخول المدينة، وكان رجالها منشغلين بتحميل الاثقال على ظهور الدواب، او بتعقب مشاغلهم التحضيرية الاخرى، كان صدى اصواتهم يتردد في جلجلة يشتم بها احدهم الآخر، أو يشتم الحيوانات الموسقة بالاثقال.

وهناك مجموعات من الابل كانت ترى في كل ناحية، وكان البعض منها باركاً وهو محمل بالاثقال، ويجأر محاولاً النهوض، في حين اقترب البعض من هذه الابل يقودها فتيان صغار في قطيع منفرد، بينما كانت هنالك فصائل من الخيل تسير فوق السهول في جميع الارجاء وهي تستمتع بقضم سعف النخيل.

ووسط هذه الجموع المتنافرة، كان التجار يشاهدون، وقد ارتدوا الالبسة الفاخرة، اذ انهم يدخلون المدينة في زي المبرزين من الناس. واذ تعقبنا صفاً من دواب محملة بالاحطاب المجلوبة من الصحراء المجاورة، استطعنا ان ندخل ابواب المدينة دون ان يشعر بنا احد.

على جانب آخر من الضريح كان افراد من الجند الاتراك يجلسون فوق السور وقد علقوا فوق رؤوسهم بنادقهم ومحفظات بارودها. كانت دائرة اولئك الجند تفتش بدقة جميع الذين يدخلون المدينة، وتفرض الضرائب على مختلف المواد التي يسمح بادخالها، وحجز المواد الممنوعة. وهذه المعاملة تساعد الجند، وبحجج عديدة، على فرض الرسوم حتى على المسافرين.

---

(٤) كتب المؤلف اسم القافلة باللفظ العربي CAFILA أما اسم كرمنشاه فقد كتبه «كرمنشاو» KARMANSHAW.

وحين مررت من امامهم عبس اولئك الجند بوجهي، بل ان واحدا منهم قد امسك بعنان بعيري ليوقف تقدمه، ولكن اشارة من رفيقه حملته على اخلائه، حيث تراجع امام الهيبة التي كان ملبسي ومظهري يضفيانها على بقية رفاقي، ولقد اصابني وابل من السباب المزمجر الذي قذف الجند به رفاقي، ومن ثم سمحوا لهم بالمرور.

وعلى هذه الشاكلة يكون التركي، فهو حين يكون داخل المدينة لا يستطيع ان يفرض أوامره، بأي مدى، على ابناء الصحراء، الذين يولدون احراراً.

كنت قبل وصولي بوقت ما، قد كتبت اطلب اعداد دار لي. وقد صحبني احد التجار لتهيئة تلك الدار التي وجدت بعض المشقة في العثور عليها. وحين دلفت الى تلك الدار وجدتها سكناً مريحاً جداً، اعدت فيها غرفة كافية لاستراحة رفاقي البدو، الذين قبلوا بالسكن معي في تلك الدار.

ولا حاجة بي الى القول بأني وجدت ان من واجبي وسروري، ان ارد لهؤلاء البدو الضيافة التي شاركتهم فيها في الصحراء، والواقع اني كنت كثير الاهتمام بهذ الامر، لان اية متعة قد توفرها المدينة لهم سيكونون اهلا لها. واخيراً، وبعد ان امضى «الشيخ صبحي» معي عشرة ايام بهيجة، غادرني هو وصديقاه.

لقد توجت عبارات الاسى والاخلاص التي تبادلناها، عند المغادرة، بالامل في ان نلتقي مرة اخرى. وكانت الاساور والاقراط التي اشتريتها لاطفالهم، قد زادت من تعلق اولئك الناس البسطاء بي.

آن الاوان ان اذكر بعض الشيء عن بغداد. فمع ان المصادر قد لا تكـون في حيـازة هؤلاء الـذين يقـرأون هذه الصفحـات، فانهم سوف لايـمتـعـضـون، ان قدمت خلاصـة موجـزة جداً عن نهوض بغـداد وانحطاطها. فلقد كان ذلك هو المصير الوحيد للامبراطورية الشاسعة التي كانت هذه المدينة عاصمة لها. وهي في الوقت الذي انمحت فيه من مخيلة الانسان، الا انها بقيت مخلدة على نطاق واسع، بقلم المؤرخ.

لقد جرت الاشادة بأبطال اليونان والرومان، ووصلت الينا بأعجاب تقليدي، في الوقت الذي لايوجد فيه في اوربا سوى القليل من الذين لهم معـرفـة بالامـبراطوريـة العـربيـة الـواسعـة، وان الـذين يتـذكـرون هذه الامـبراطـوريـة مايـزالـون اقـل عدداً. كانت مؤلفات الكثير من الكتاب الاوائـل الـذيـن كتـبـوا

عن هذه الامـة العـربيـة، امـا غير صحيحـة بحـد ذاتهـا، او غدت غير صحيحة بفعل الخصوم المتعمدين، او انها كانت ضعيفة وغير كافية. ولكن تلك المـؤلفـات كانت على الغـالـب مشحونة بالخصومات الداخلية التي لا انتهاء لها بين العرب انفسهم.

وعلى هذا فان المـؤلفـات التي تتوفر لنا في الوقت الحاضر قد احتلت اماكن المؤلفات الجيدة، من المراجع التي اعتقد بأنها كانت موجودة في وقت من الاوقات هناك، لكنها غدت الآن مفقودة ليس من المهم ان اعرج الآن على الافـاضـة في مبكر تاريخ العرب ذلك لان احد المؤرخين الملهمين قد دوّن اصلهم في كتـاب «الخليقـة» والـذي ما يزال ـ كما لاحظت ذلك قبلاً ـ يعتبر جزءاً من تقاليدهم القائمة. فهذا الامر، بالاضافة الى نمط حياتهم الـذي لم يتغـير، يمكن تقبـل ماورد عن العـرب، بمثـابـة دليل حي على منجزات توقعات النبوة التي صاحبت مولد ابيهم المعروف وهو «اسماعيل»[٥].

(٥) اسماعيل بن إبراهيم الخليل الذي يعتبر جد العرب العاربة.

فقبـل حوالي خمسـة وعشـرين قرنـاً ، كان العـرب يحتلون من دون طمـوح او اعتـدال ، صحراءهم المحرقة الخالية من الطرق . غير اننا نلتقي في تاريخ العالم بآثار عرضية لهم . فنحن نجد «قمبيز»[٦] يتاجر معهم عندما دخـل بلاد مصـر ، كما نجـد ان «فيليب» امـبر اطـور روما[٧] . يعتبرهم من سكان البلاد .

وكذلك نرى ان اعداداً من هؤلاء العرب قد قتلوا شهداء على يد «ديوقليس»[٨] .

ولقد كانت ديانة العرب تتألف من عبادة الشمس والقمر والنجوم . وقد تميزوا بقسوتهم البالغة ذلك لان البلاد التي كانوا يعيشون فيها لا تقدم شيئاً من شأنه ان يغري اويعوض عن تجاوز الطموح . فقد كانوا يعيشون في حالـة الاستقـلال التي لم يمكن القضـاء عليهـا كليـة ، وكـانت سجـايـاهم وعوائدهم ذات طابع يختلف عمن كانوا يعيشون حولهم ، فهم لا يصادقون احداً ، ويقاومون الكل .

ويميـل صغـار رؤساهم الى الشدة ، والحفاظ على شرف العائلة ، والكفـاح في سبيـل ذلك ، والتغلب على من يتعرض لشرفهم ، وان يسقط احدهم امام الآخر قتيلا . ومع ذلك فان تلك الحروب الصغيرة التي كانت تقع قبلا وما تزال تقع حتى الآن ، لم تكن حروباً دامية .

---

(٦) قمبيز CAMBYSES هو ابن كورش الاول ملك الاخمينيين ، وقد استولى على مصر ، كما انـه قتـل اخـاه «بـرديـا» كيـلا ينازعه على العرش وقد ادعى «غوماتا» احد المجوس بأنه هو «برديا» الذي عاد الى الحياة ، فلما سمع قمبيز بذلك خاف وانتحر ، وحل محله في الحكم ذلك المجوسي .

(٧) فيليب PHILIP وهـو المشهـور باسم فيليب العـربي لانـه كان عربي الاصل تولى حكم امبراطـورية روما بعد جوليان الثالث . وقد بدأ حكمه باصلاحات عديدة لكن الامبراطورية ما لبثت ان تعـرضت لهجوم من الغـرب والشـرق معاً ولـذلك لم يطل حكمه أكثر من ثلاث سنوات (١٤٤ ـ ٢٤٧م) ثم ترك الحكم لابنه فليب الذي استمر فيه من سنة ٢٤٧ الى سنة ٢٤٩ .

(٨) ديوقليس DIOCLESIAN أو ديوكلسيان امبراطور روما الذي حكم في الفترة ما بين ٢٨٤ ـ ٣٠٥م .

ولقد تكاثر سكان الجزيرة العربية، وانتشرت في تلك البلاد التي لم تكن لتشجع على وجود الصناعة، او ان تعوض عن الكدح. وفي النهاية، وحين ضاقت بهم الارض، ظهر فيهم رجل استطاع ان يوحدهم في كتلة واحدة، وان يشدهم برابطة مشتركة من العطف والاحساس، وان يقودهم قدما الى مآثر حطمت ذلك «الظل الممدود امامهم» وحولته الى عالم مذهل وهاجع.

لقد اردنا كخطوة اولى ان نحدد ظهور سلطة «محمد» وتقدمها. ونحن اذ ننظر الى الخلفاء الذين استطاعوا بسرعة خارقة ان يبسطوا سلطانهم على الممالك والامبراطوريات، وان يتغلغلوا وسط شعوب مسالمة لحملها على اعتناق الدين الجديد، او الخضوع له، او نشدان النصر حتى عن طريق التدمير، فاننا نمر مسرعين بقسم من المشاعر الحماسية التي رافقت اولئك الذين حققوا مثل هذه الامجاد الشرقية.

ذلك ان تميز العرب الخاص بهم خلال حقبة طويلة من القرون، قد اضفى عليهم درجة من الاهتمام والمجد، لا يستطيع معها تصورنا ان يبسط تلك المآثر امامنا عيانا.

● ● ●

كان محمداً من نسل اسرة نبيله، وقد عده العرب الممثل المباشر لاسماعيل، وبعد ان شرع يبشر بمبادئه لاول مرة، اضطره الاضطهاد الى الهجرة من المنطقة التي كان يسكنها الى منطقة أخرى. ثم لم يلبث بعد ذلك ان غدا فاتحاً، فدخل موطن مولده منتصراً. وبعد ان استفز اتباعه بما كان يتنبأ لهم من انتصارات في المستقبل، واستطاع اجتذابهم بدين اختير وفقاً لحماستهم، شرع يقودهم خلال حياته من نصر الى نصر.

وبعد وفاته اصبح الدين الذي جاء به، عزيزاً لدى العرب، لانه دين نزل اليهم من السماء كي يساعدهم ويهذبهم، هذا في الوقت الذي اثارت فيه شهرة الرسول، وانجازاته، مطامح ذلك الشعب الذي شب على العرف والتصور، وهكذا، وتحت قيادة خلفائها، انطلقت تلك الأمة، التي كانت تتألف قبلا من الغزاة والرعاة، وكأن ذلك قد حدث بسحر ساحر، لكي تبسط سيطرتها، ولتظفر بالعظمة والجلالة.

وام تمض عشر سنوات على وفاة الرسول «محمد»، حتى كانت الامبراطورية العربية تمتد من نهر «الغنج» الى المحيط الاطلسي، ومن اهرامات مصر الى صحارى افريقيا الجنوبية، فاصبحت تخضع لهذه الحكومة العربية عشرون ألف مدينة، ولم يستطع حتى «كورش»[٩] الذي أصبح «قارون»[١٠] عبداً له، وغدت «بابل» ولاية تابعة له، بل وحتى «الاسكندر»[١١] الذي كان يتطلع الى عوالم جديدة لافتتاحها، لم يستطع كل هؤلاء ان يتمتعوا بسلطان يعادل السلطان الذي تمتع به خلفاء الرسول.

لقد كان النصر يأتي في اعقاب نصر سابق، وكانت الامة بعد الأمة تسقط، اذ تم اجتياح افريقيا، وقوضت اسس آسيا، واصبح هذا الطوفان

---

(٩) كورش، ويعرف باسم كورش الاول مؤسس الاسرة الاخمينية التي حكمت خلال الفترة ٥٣٨ - ٣٣١ قبل الميلاد. اما المقصود هنا فهو كورش الثاني الذي حكم ايران والعراق في الفترة ٥٥٩ - ٥٢٩ ق.م.

(١٠) قارون هو كرويسس CROESUS ملك بلاد ماذي، والذي اشتهر بكثرة ما جمعه من كنوز وقد كان كورش الثاني ملك الاخمينيين تابعا لماذي لكنه ثار عليها ثم سحقها وضمها الى بلاده واسر ملكها قارون، الذي ورد ذكره في القرآن الكريم.

(١١) هو الاسكندر المقدوني الذي اجتاح الشرق فانتزع بلاد العراق من ايدي الفرس الاخمينيين، وغزا بلاد فارس ذاتها ووصل الى الهند ثم توفي بعد عودته من الهند في مدينة بابل سنة ٣٢٣ ق.م.

يهدد أوربا ذاتها، وهكذا تم التغلب، بطاقة لا تقهر، على كل العقبات التي كانت تقف في طريق العرب طبيعية كانت أم اصطناعية.

على ان اضمحلال الامبراطورية العربية وسقوطها، لم يكن ليقل سرعة عن وقت نهوضها. فقد حدث نقص في التماسك داخل النظام، وعدم كفاءة في عقول بعض الحكام وفي المبادىء. وهكذا انقسمت الحياة الحاكمة الى سلالات، كانت قبلا ولفترة ما تؤلف أجزاء دولة اتحادية، بدلاً من أقاليم لمملكة عظمى.

● ● ●

ولنعد الآن الى بغداد فنقول ان هذه المدينة قامت على ايدي العباسيين في سنة ٧٦٢م على ضفاف نهر دجلة، وبقيت تحت سلطانهم طيلة خمسة قرون، عاصمة ثرية لامبراطورية شاسعة. لقد تم الآن توطيد السلطة التي نالها العباسيون بحد السيف، وهدأت العواطف الثائرة وافسحت مطامح السلطة الحاكمة السبيل الى تحمس العقل الخالص.

ذلك ان العرب ما ان اصبحوا مستقرين، حتى تركوا الفتوحات العسكرية جانباً، وشرعوا ينشرون فنون السلام الرفيعة، وهكذا غدت عقولهم مفعمة وصقيلة، وما عدا الخلفاء فقد أصبح من النادر علينا ان نتصور ان هؤلاء كانوا يتحدرون من أولئك المحاربين الاشداء، الذين دمروا مكتبة «الاسكندرية»[12].

لقد استطاع العرب ان يفتتحوا العالم وان يؤسسوا امبراطورية قوية، وهذا امر يمكن ان يبعث من جديد وبصفة جيدة. غير ان مثل هذه

---

(١٢) ما يزال كثير من المؤرخين الغربيين يرددون في كتاباتهم الفرية الكاذبة التي الصقوها بالعرب المسلمين عند الاستيلاء على مصر بقيادة القائد العربي الشهير عمرو بن العاص، واتهامهم بانهم قد احرقوا مكتبة الاسكندرية الشهيرة في ذلك الوقت. ولم يذكر من المؤرخين العرب احد هذه التهمة سوى «ابن العبري» وهو من المتعصبين جداً لنصرانيته. والثابت ان مكتبة الاسكندرية قد احرقت قبل الفتح الاسلامي لمصر بعدة قرون، بأمر من يوليوس قيصر. وقد أيد هذا الحادث المؤرخ الروماني بولس أو رسبوس في كتابه الذي ألفه سنة ٤١٦م.

الاحاسيس لا تفتأ تفسح الطريق أمام احاسيس أخرى من الدهشة والاعجاب عندما نرى نفس هذا الشعب العربي يوطن نفسه على الابداع، وهضم كل اصناف التقدم البشري.

ان الرجل العامي قد يعتبر العرب مجرد اناس متوحشين، وقتلة، ومتعصبين لدينهم تماماً، وغير جديرين بالعواطف الرفيعة، ومن المعادين لظهور مثل هذه العواطف لدى الاخرين. ففي الحلكة التي تطبقها العصور المظلمة تشتد الحاجة الى بحوث المؤرخ لكي يكتشف ويوضح، كم نحن مدينين حقاً وكثيراً الى خلفاء «محمد» بالمزيد من الصفاء الذهني، والانتاج الفعال القوي، وللعقل والقدرة الذهنية التي أعانت أوربا الحديثة لكي تنطلق عبر ظلام العصور، ولتحدث تغييراً ذهنياً في العالم المتمدن كله.

عندما كان «هرون الرشيد» العادل، يحكم بغداد في مملكة شاسعة مثل سعة المملكة المحمدية، لم تكن العلوم المنتشرة في كل انحاء الخلافة أقل اعجاباً، أوسعة، مما كانت عليه في مراكز الامبراطورية، أوفي قصور قرطبة، ولم يكن سطوع فتوحات العرب اقل من سطوع معارفهم.

وذلك ان سلطتهم ازدادت عظمة نتيجة اتساع المدنية وتعاظم الاصلاح. فمن قصورهم الفخمة في بغداد، كان دم حياة المعرفة يتدفق حراً طليقاً في كل شريان من شرايين الامبراطورية العظمى التي اوجدتها، أو انجزتها شجاعتهم واقدامهم. فلقد كانت المعرفة تنهل من كل مكان، وكانت تلقى التشجيع من كل أمة.

ولقد استمرت شهرة بغداد ذائعة في ميدان العبقرية، والصناعة، والمعرفة طيلة خمسة قرون. لقد اشرقت الانوار المضيئة لفلاسفتها، في

الوقت الذي كان فيه كل شيء حولها يلفه الظلام، مثلما كان عليه الامر في تاريخ البشرية، ان هذا العهد سيظل يذكر على الدوام بالاعجاب والدهشة ما دامت الآثار الفخمة لمساجدها قائمة، لكي تنتزع ثناءنا، وتتحكم باحترامنا.

وعلى هذا فنحن مدينين الى هذا الشعب الشهير، بالربط بين العلوم القديمة والحديثة، ونحن مدينين الى العرب باعداد الترقيم التي نستعملها الآن، وبصناعة القطن، والورق، وربما حتى بارود المدافع، وبأول استعمال - ان لم يكن بأول اختراع - للبوصلة، وبالبحوث المجدة، والاعمال التجريبية في الكيمياء.

وإذا ما صدق ذلك فنحن مدينين، بشكل قليل أيضاً، الى العرب باكتشافاتهم في الفلك.

لقد كانت لدى العرب، على أقل تقدير، ميزة نشر روحية البحث الجادة بين ابنائهم مباشرة، والتي قدمت الينا على انفراد في حالة متقدمة جداً. وكذلك حين ننظر الى الهندسة المعمارية التي اتقنها هذا الشعب، فنشاهد «الحمراء» ومسجد «عمر» في القدس، فاننا لا نستطيع ان نتصور عظمة تصاميمهم، وتناسبها الهائل، ودقة اعمال التخريم والتفريغ، واتقان تركيب الزخارف، والتي تدلل بحد ذاتها على القوة الابداعية لدى المعماريين العرب.

انه لمن المؤسي حقاً ان نتحول من ملاحظة مثل هذه العظمة والنهضة، الى انحطاطها وسقوطها. ذلك لان الامبراطورية العربية تعتمد في الوقت الحاضر، على رفق اعدائها بها أكثر مما تعتمد على قدرتها في الاستقلال وعلى عزيمتها.

وعندما تحرك السكان الاشداء في اقصى الشمال من الكرة الارضية، نتيجة انتشار الدين المحمدي فيما بينهم، بذات الروح التي اثارتهم قبلا، غدوا ضحايا هينة للعدوان البكتيري[١٣]، وبعبارة موجزة، سقطت بغداد، وزالت الخلافة، وأصبح العباسيون أنفسهم، خاضعين لتسلط الاتراك، وذلك الحكم الاستبدادي الذي أخذ منذ ذلك الوقت يمارس تأثيره التدميري التخريبي، والذي أحال الامجاد الماضية الى قفار، فتراكمت حروبه، وغدت أكثر شؤماً من انعدام كل المساهمات الحقة في الاسعاف والانعاش.

فمنذ ذلك الوقت ركع هذا الجزء من الشرق لنير الفريق الثاني من غزاته «المسلمين»، فأصبح الآن مجرد منطقة ضعيفة بائسة مزقتها الاهواء التعسفية لمالكيها، وغدت مدنسة لا قيمة لها.

لا فائدة من تعقب الخطوات التدريجية لسقوط بغداد، ولعرض حالتها البائسة الآن. ذلك لان افضل المعلومات عنها نستطيع ان نجدها في وصف «روسو» لباشوية بغداد[١٤]. ولذلك سوف اكتفي بذكر الامور التي حدثت خلال زيارتي أو ما قبلها مباشرة.

● ● ●

---

(١٣) بلاد بكتريا BACTERIA كانت تتاخم مقاطعة أذربيجان التركمانية المستعبدة لحكام ايران في الوقت الحاضر، ويقصد المؤلف بالعدوان البكتيري، العدوان المغولي الذي قضى على الخلافة العباسية في العراق، ودمر مراكز الحضارة والمدنية في ربوع الرافدين، حيث استمر الحكم المغولي هنا من سنة ١٢٥٨م، وهو تأريخ سقوط بغداد بيد هولاكو حتى سنة ١٣٣٨م.

(١٤) م. روسو من عائلة الكاتب الفرنسي جان جاك روسو كان يتولى منصب المقيم الفرنسي في بغداد خلال الفترة ١٧٥٩ ـ ١٨٠١م وقد وضع كتاباً عن بغداد يعتبر من المراجع المهمة عن احوال العراق في ذلك الوقت سماه «وصف باشوية بغداد» طبع بباريس سنة ١٨٠٩م.

كان «داود»[١٥] آخر وال على بغداد، مملوكا لدى «سليمان»[١٦] أحد باشوات بغداد السابقين. ولما كان قد ورث عنه كل مبادئه الطموحة، دون ان يملك ولو جزءً ضئيلاً من ثروته، وذلك باحتراف مهنة «الملا» والاقامة داخل مسجد «عبد القادر»[١٧] شيخ بغداد المقدس، فقد أخذ داود هذا يتطلع الى ان يعيش في اكناف الواليين اللذين خلفا سليمان[١٨].

ولقد راح ذانك الواليان - نتيجة تصرفهما والتشدد في فرض الضرائب المعتادة - ضحيتين لنقمة لباب العالي عليهما. وذلك لان بغداد كانت، بعد مصر، أغنى باشوية في ثروة الباب العالي. ولكن تقاعس الحكم، ووطأته الشديدة عليها، قد أدى الى انفاق الموارد والضرائب، أما على الاستعراضات العسكرية، أو على الحملات غير النافعة التي كانت تجرد ضد البدو، في الوقت الذي كانت فيه التجارة، بل وحتى الحكومة نفسها، في قبضة نفر قليل من الارمن واليهود.

---

(١٥) يقصد به داوود باشا والي بغداد والذي تولى باشوية بغداد خلال الفترة ١٨١٦ - ١٨٣١ وبعزله تم القضاء على حكم المماليك في العراق، وعاد الاحتلال العثماني اليه مرة اخرى حتى انتهاء الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٨.

(١٦) يقصد به سليمان الكبير، وهو من المماليك الذين تولوا باشوية بغداد خلال الفترة ١٧٨٠ - ١٨٠٢م.

(١٧) يقصد به الشيخ عبد القادر الكيلاني الصوفي الشهير وصاحب الطريقة القادرية أو الكيلانية المنسوبة اليه والتي ما تزال تحظى باتباع كثيرين لها في معظم الاقطار العربية والاسلامية على حد سواء.

(١٨) يقصد المؤلف بذلك الواليين حافظ علي باشا (١٨٠٢ - ١٠٨٧) وسليمان الصغير ١٨٠٧ - ١٨١٠، ولكن الصواب هو ان داود باشا عاش في اكناف سيده سعيد باشا ١٨١٣ - ١٨١٦ لكنه مالبث ان تآمر عليه وفتك به، وانتزع الولاية منه.



جامع الاحمدي في الميدان

على هذه الشاكلة كانت أوضاع البلاد في سنة ١٨١٧م عندما قدم «داود» طلبه الى الباب العالي باشغال منصب الباشوية الشاغرة، لقد كان الظن الشائع ان داود، بالنظر الى المؤسسات الواسعة التابعة له، وبالخضوع الظاهر لارادة هذه المؤسسات، لن يستطيع أن يسلب السكان أموالهم، وان يقدم على التقليل من الجزية المفروضة عليهم. وهكذا تم اختيار داود في احتفال كبير، باشا لبغداد يحمل الطرات الثلاث(١٩) واستطاع عن طريق تظاهره بالوداعة ان يمسك بزمام الحكومة.

لكنه ما ان تمكن، خلال سنة واحدة، من توطيد سلطته، واجتذب ولاء الجند له عن طريق الهدايا، حتى فاز بحسن ثقة التجار والناس به، وذلك بادارته الحكيمة لشؤون العدل، وبذلك استطاع علانية ان ينزع القناع عن وجهه، وأن يعلن بكل شجاعة عزمه على الامتناع عن دفع أية ضرائب الى الباب العالي في المستقبل.

اصبح في مقدمة أغراضه الآن، هو ان يحمل العرب على الطاعة له. وكانت تلك مهمة شاقة حقاً. فلما كان هؤلاء العرب قد استمروا في منع وصول التجارة الى العاصمة، وقطع كل التموينات عنها، فقد اقتضت الضرورة ان ينفذ داود ما اعتزمه. وعن طريق الرشوة تارة، وتحريض هذا ضد ذاك تارة أخرى، وبحيل مختلفة، استطاع في النهاية أن يحقق قصده، وهكذا تمكن خلال شهور، ان يحمل الجميع على الطاعة التامة له، أكثر مما ناله الحكام الكثيرون الذين سبقوه، أو حققوه منذ ذلك الوقت.

وعن طريق هذا الحكم القوي الآمن، تم تشجيع التجارة، وعادت بغداد تتمتع بالثراء مرة أخرى كما كانت عليه قبلاً.

---

(١٩) الطرات الثلاث : هي الراية ذات الذيول الثلاثة التي كان السلطان يمنحها الى الولاة اشارة الى تقلدهم مناصب الولاية.

لقد أصبح داود، بعد ان توفر لديه جيش قوامه مائة وخمسون ألف رجل مجهزين تجهيزاً جيداً بالسلاح، ومدربين على يد طائفة من الضباط الاوربيين والمغامرين، وبوجود ترسانة كبيرة للسلاح، وخزانة ملىء بالاموال، في وضع يستطيع معه ان يقاوم أية قوة قد يوجهها «السيد الأعظم» ضده[20].

ولقد تشجع الحاكم الحالي لبلاد مصر، وهو مثل داود في مسلكه، وذكائه، وآرائه، على الانفصال انفصالاً تاماً عن الامبراطورية التركية، وتوطيد استقلاله المتين في بلاد شاسعة. وهكذا أصبح الآن كل عصب مشحوذ لزيادة نفوذ داود في القبائل العربية التي غدت الآن تؤلف قوة الولاية، اذا ما جوبهت بأية قوة معادية.

لقد كانت انباء السلطان تنقل اليه دوماً، وكان الرسل الذين يرسلون الى الباب العالي يقتلون قبل وصولهم الى هناك، أو بعده بوقت قصير. فقبل وصولي الى بغداد تم القاء القبض على أحد هؤلاء الرسل، وقتله لانه كان يحمل فرماناً مع تفويض من العلماء[21] يتهم الباشا بانه كافر وخارج على القانون. وهكذا كان يتم وضع أوراق الاتهام هذه، مع جثة الرسول في كيس، ورميه في ماء النهر.

ويظهر ان الباب العالي لم يكن مستعداً لتحمل الاهانة الاخيرة. فقبل ان ينقضي شهر واحد على تلك الحادثة، وافت الانباء تفيد بان قوة

---

(٢٠) السيد الاعظم GRAND SEIDNIOR هو اللقب الذي كان الاوربيون يطلقونه على سلطان تركيا في ذلك الوقت.

(٢١) كتب المؤلف كلمة علماء باللفظ العربي هكذا ULAMA .

كبيرة قد تجمعت في حلب تحت أمرة «علي رضا باشا»[٢٢] وان غرضها هو ازاحة داود عن الحكم. ولما كان الباب العالي قوياً في موارده، فانه لم يتخوف من داود إلا قليلاً، ولذلك عزم على توجيه قوة مؤلفة من ثلاثين ألف فارس لتأخذ مكانها في ميدان القتال، وحماية الجزيرة الشمالية[٢٣] وقوافل المدينة، من هجمات احدى القبائل التي قيل ان داود باشا قد اشتراها لتقف الى جانبه. وبعد مناوشات قليلة اعقبت ذلك، تم ضرب تلك القبيلة في النهاية، وابعادها الى الصحارى التي كانت تسكن فيها.

لقد وقع حادث غريب بهذه المناسبة. ذلك ان العرب وان كان يمكن تأجيرهم لضرب بعضهم البعض، إلا انهم مع كل ذلك، ما يزالون ينظرون الى اصلهم المشترك.

لقد حدث ان تم أسر شيخ احدى القبائل، وجيء به هو وولديه مكبلين أمام داود باشا، وعندئذ اصدرداود امره قائلا «ليقادوا الى الموت، وان تلقى جثثهم للخنازير خارج الاسوار!

ولم يلبث جملة من العرب ان احتجوا على ذلك فوراً، وحين هددهم داود بمصير مماثل، التحقوا بقبائلهم، وعسكروا في الصحراء، وطالبوا باطلاق سراح الشيخ وولديه، وإلا فانهم سوف ينضمون في الحال الى جماعة السلطان. لقد اعتبر البدو كلهم ان تلك القضية قضية مشتركة

---

(٢٢) علي رضا باشا اللاز كان والياً على حلب عندما اصدر السلطان أوامره اليه بمهاجمة بغدا والقضاء على داود باشا وقد تولى علي رضا اللاز هذا حكم العراق بأكمله خلال الفترة ١٨٣١ - ١٨٤٢ كما هاجم اقليم الاحواز واستولى على المحمرة عاصمة امارة بني كعب وفتك بأهلها فتكاً ذريعاً.

(٢٣) يقصد بالجزيرة الشمالية الارض الممتدة بين العراق وسوريا والتي تسكنها قبائل واحدة غدت الآن موزعة بين الحكومتين السورية والعراقية.

لهم، وسارعوا الى الالتحاق برؤسائهم، وإذ ذاك اضطر الباشا مرغماً الى الاستجابة لمطاليبهم.

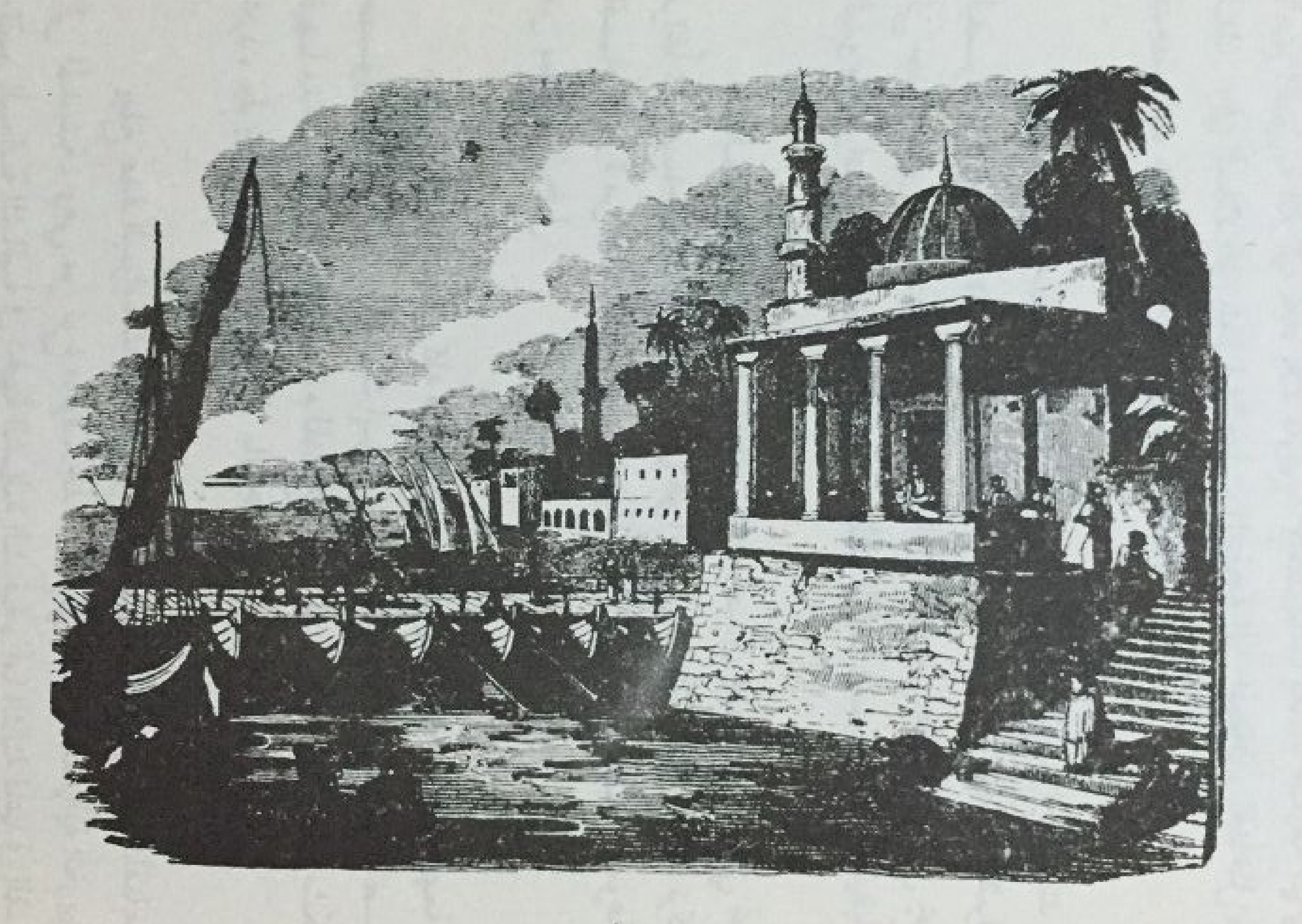
وعلى الرغم من قسوة العرب، واصرارهم على الانتقام حين يستثارون، فانهم في الواقع ليسوا اناساً قساة، وان السرور الذي يظهرونه حين يسلم الاسرى اليهم، يدلل على ابتهاجهم، لأنهم قد انقذوا حياة بعض أفراد قبيلتهم الخاصة.

وحين يدخل الاعراب المدينة، يتذكرون تحصينات الاتراك، والوشاية بهم الى الباشا، اذا ما حاولوا التغلب على المدينة. على هذه الحالة كانت الحالة السياسية في بغداد اثناء فترة زيارتي لها، أما الآن فسوف اصف مظهرها، وتجارتها، ومواردها.

الفصـــل الثالث

بغـداد. موقعهـا. حدودهـا. تحصينـاتهـا. القصـور. المساجد. دراويشهـا. حمامـاتهـا. ظلام الشـوارع. مطـاردة الكـلاب. المسـرات. الملبس. السكان. التجارة. الحكومة.

تقـع بغـداد في سهل مستو واطىء. ويمر نهر دجلة خلالها ويقسمها الى قسمـين، يقـع اكـبرهما في الجـانب الشـرقي، وتكون المواصلات بين القسمين عبر جسر من القوارب. واذ كانت عاصمة للامبراطورية العربية، فقـد كانت هذه المـدينـة في السابق واسعة جداً ومأهولة بالسكان. ولكن بعـد أن تداولتهـا أيـدي الـعـرب، والفـرس، والاتـراك، وتقلصت بفعل الحكم السيء، والاستبـداد، اصبـح مظهـرهـا الحـالي يتناقض مع مجدها السالـف، واناقتها، وأصبح عدد كبير من سكانها يؤلفون مفارقة مزرية.



جسر بغداد

ومع ذلـك فان المدينة ما تزال تحتفظ بمكانتها كواحد من أهم مراكز التـجـارة في هذا الجـزء من قارة آسيـا، وكأعظـم مديـنـة على حدود الامبراطـورية التركية تجاه بلاد فارس. وتحصينات بغداد ضعيفة كما يبدو ذلـك. وفي البـلاد التي يندر فيها جلب المدفعية الى الميدان، تعد مثل هذه التحصينات كافية لمقاومة الفرس، والوهابيين بنجاح.

ولقـد اتسعت سلطـة الـولايـة اسميا، اثناء زيارتي فراحت تمتد من البصـرة جنـوباً، الى «ماردين» شمالاً[1] ومن حدود فارس وكردستان شرقاً، الى حدود سوريـا وفلسطـين غرباً. غير ان الكثير من هذه الاراضي يحتله البدو والاكراد الذين كان اعترافهم بسلطان الباشا اسميا وليس حقيقياً.

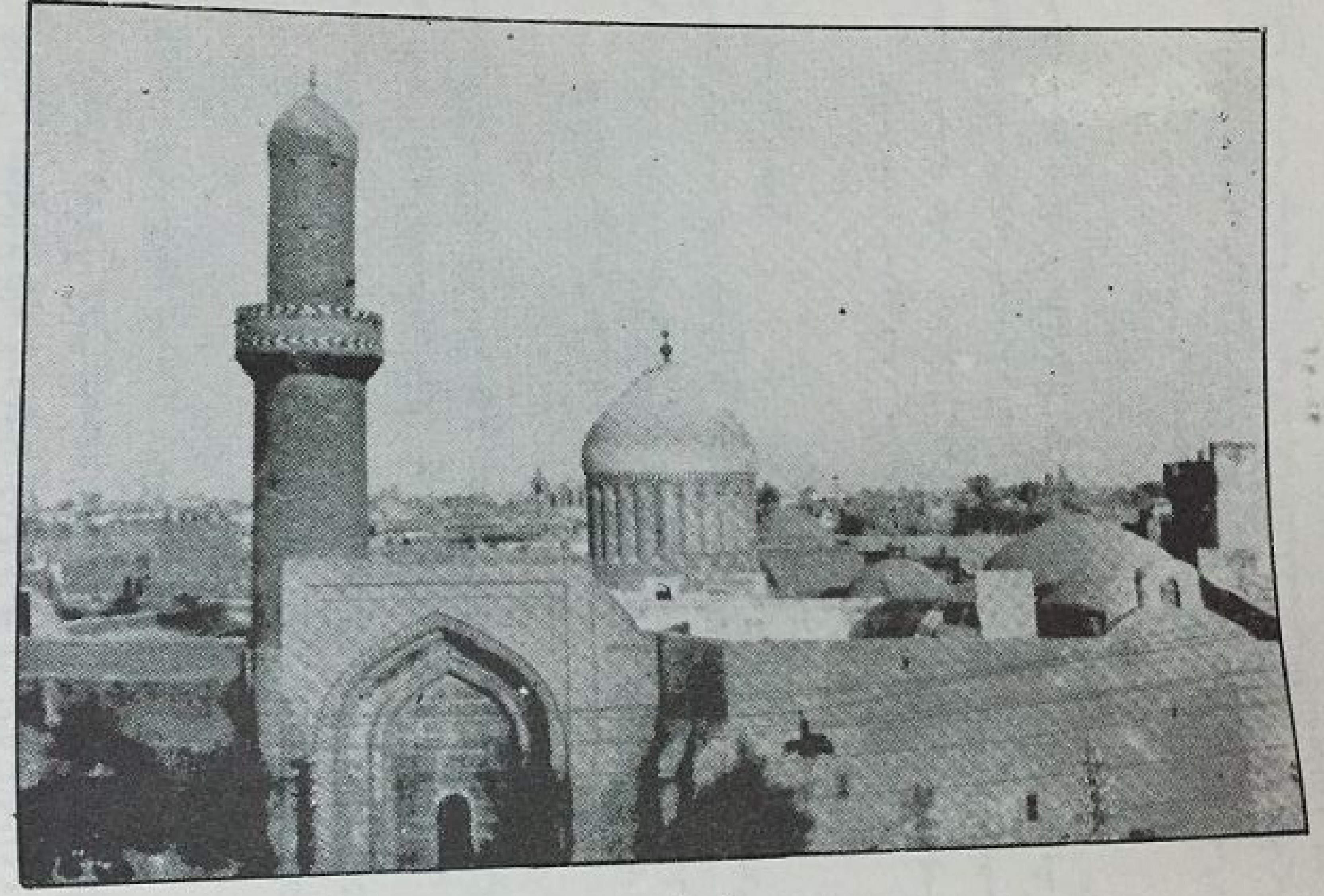
هنـالـك سور بين معـد للقتال يكتنفه خندق يحيط بالمدينة التي تحتل فراغاً تبلغ مساحته سبعة أميال. وكما هو الأمر في مدينة البصرة، فقد تركت اقسـام كبـيرة من هذا الفراغ غير مشغولة بالمساكن، وقد غطتها مجموعات من بساتين النخيل.

ولقـد شيـد السـور كله من الآجـر، وأجريت عليه ترميمات مهمة في عصـور مختلفـة خلت. وهنـاك ابـراج مدورة على مسافات منتظمة نصبت فيهـا مدافـع برنـزيـة تستخـدم للدفاع. أما الخندق فقد تم حفره بشكل مجرد، ولم يجر تغليفه لا بالبناء ولا بالآجر.

يبلغ عدد البـوابـات في السـور ثلاث بوابـات فالبوابة التي دلفنا منها الى المـدينـة، وهي من نوع مألوف جداً، تقع في الناحية الشمالية الغربية. وتقـع البـوابـة الثـانيـة في الجهة الشمالية الشرقية، أما الثالثة فانها في القسم

(١) أخطأ المؤلف اذ ذكر ان البصرة تقع في شمالي العراق وماردين في جنوبه.

الجنوبي الشرقي . وتتألف هذه البوابات من أواوين عالية مستدقة الشكل، يتم الـدخـول اليهـا بمحـاذاة أي جانب منها وذلك لوجود حافات أو أيدي مستـدقـة تأخـذ ذات الاتجـاه الـذي يأخذه الايوان أو الطاق، ثم تلتقي في الجزء العلوي الذي يتألف من أجزاء رشيقة محلاة بالتماثيل الجيدة .



صورة جامع مرجان

فوق الباب التي دخلت منها. كتابة تؤكد ان هذا البناء قد شيد في القرن العاشر من تقويمنا[٢] وإذ ما زالت هذه الباب جميلة بالشكل الذي كانت عليه قبلاً، فانها هي والسور، توشك ان تنقض في الوقت الحاضر، إذ لوحظ مؤخراً ان بعض الاماكن قد قلع الآجر منها بشكل منتظم، مثلما هو الامر لاي من المباني الاخرى التي شهدتها.

تتألف الابنية الرئيسة داخل القسم الشرقي من المدينة، من الجوامع، وفنادق المسافرين، والمعاهد، والحمامات، وقصر الحاكم. وهذا الاخير هو المبنى الرئيس وقد أقيم في القسم الشمالي الشرقي من المدينة، وهو لا يختلف الا قليلاً في سعته عن المساكن الاخرى. وهذا المبنى الذي شيد اصلا في عصور مختلفة من دون الاهتمام بأي تخطيط اصيل في بنائه، يمثل مجمعاً سيء التنظيم، يضم الكثير من الدوائر العامة، التي تتوفر فيها

---

(٢) شيد سور بغداد لاول مرة سنة ٤٨٨هـ - ١٠٩٥م، على يد الخليفة المستظهر ثم كمل بناؤه سنة ٥١٧ هـ - ١١٢٣م، وذلك في عهد الخليفة المسترشد وقد جدده كل من الخليفة الناصر لدين الله (١١٨٠ - ١٢٢٥م)، والخليفة المستنصر (١٢٢٦ - ١٢٤٢م)، وبقى قائماً حتى الاحتلال الانكليزي لبغداد سنة ١٩١٧م.

وكان للسور اربعة ابواب: هي الباب الشمالي ويعرف باسم باب السلطان وهو باب المعظم الحالي، وباب «المظفرية» شرقي بغداد قرب مقبرة الشيخ عمر السهروردي، ويعرف باسم «الباب الوسطاني» وهو لايزال قائماً حتى الآن، وقد استعمل لفترة بمثابة متحف للاسلحة القديمة، وباب «الحلبة» وقد عرف باسم الطلسم وذلك لوجود تمثال في اعلى الباب يمثل رجلاً وعلى يمينه ويساره ثعبانان. وقد نسف الاتراك هذا الباب حين اتخذوه مخزناً للبارود، وذلك يوم انسحابهم من بغداد ليلة الحادي عشر من آذار سنة ١٩١٧، وباب «البصلية» جنوبي بغداد «الباب الشرقي»، وقد اقام الانكليز فيه كنيسة هدمت في اواخر سنة ١٩٤٧ واتخذت ساحة لوقوف باصات المصلحة قبل افتتاح الجسر الحالي.

أما الخندق الذي كان يحيط بالسور فقد ردمه ناظم باشا والي بغداد في حدود سنة ١٩١٢.

الغرف الواسعة للباشا، وموظفيه، واصطبلاته[٣].

أما غرفة الاستقبال التي سمح لي وحدي كغريب، بالدخول إليها، فإنها مزينة زينة فخمة بمقاعد قرمزية اللون، وبالستائر والسجاد الثمين، في حين زين السقف والجدران بمنحوتات خشبية مذهبة.

واصطبل الباشا بالغ القيمة جداً، وهو يضم مهاراً قيمت كل واحدة منها بألفين وخمسمائة دولار، أي حوالي خمسمائة باون. وقد جلبت هذه المهار بصفة اساسية من بلاد «نجد» وهي لا تستعمل للركوب، وانما يحتفظ بها لغرض التزاوج وقد قيل ان عدد المساجد في بغداد يتجاوز المائة، ولكن القليل منها حسن البناء، وهي بصفة عامة لا تساوي المساجد الموجودة في سوريا ومصر. ومن المواد التي شيدت منها هذه المساجد، وهو الآجر الصغير الحجم ذو الالوان الصفراء والحمراء، لا نستطيع ان نتوقع فعلا وجود المزيد من المتانة في مثل هذه المباني.

---

(٣) هذه البناية هي ذاتها القائمة في الوقت الحاضر والتي نسميها باسم «القشلة»، وقد اتخذ قسم منها في العهد الملكي مقراً لوزارة التربية وآخر لوزارة المالية، وثالثاً لمجلس الوزراء، وهو الذي تقوم فيه مديرية الشرطة العامة في الوقت الحاضر. أما مبنى وزارة التربية فهو الآن مقر الاشراف التربوي.

واقدم هذه المساجد هو «جامع سوق الغزل»[٤] والذي لم يكن اقدم من السنة ١٢٨٥ ميلادية[٥]، وهنا وفي أي مكان آخر، تعتبر مثل هذه الاقسام من المباني القديمة التي تظل قائمة، افضل من تلك التي شيدت في عصور فاخرة. والفراغ الذي يشغله الجامع يؤلف ساحة مستطيلة. فالقسم الأول منه عبارة عن فراغ مكشوف، يحيط به جدار متهدم، ويحتوي على صهريج يستعمل ماؤه للوضوء قبل إداء الصلاة وبعدها. ويقوم الجامع في النهاية القصوى من هذا الصهريج، وهو بناء مربع الشكل عادة يرتفع الى زهاء ستين قدماً، تتوجه احدى القباب.

وهذه القبة من طراز فارسي، وهي أكثر استدقاقاً من القباب التي توجد في سوريا أو في مصر. وكان المعتاد قبلاً ان تطلى هذه القباب بالذهب[٦] ولكن تم الكف مؤخراً عن هذه العملية فهي الآن أما أن تزوق أو تغطى بالكاشي المزجج من أنواع مختلفة. وحين تسطع أشعة الشمس على هذه القباب وتتلألأ، تضفي عليها جوا من البهجة والحيوية الغريبتين عن المظهر العام للمدينة التي تظهر من فوق سطوح منازلها وألوانها القذرة ذات المشابهة ونفس الظلام المألوف.

---

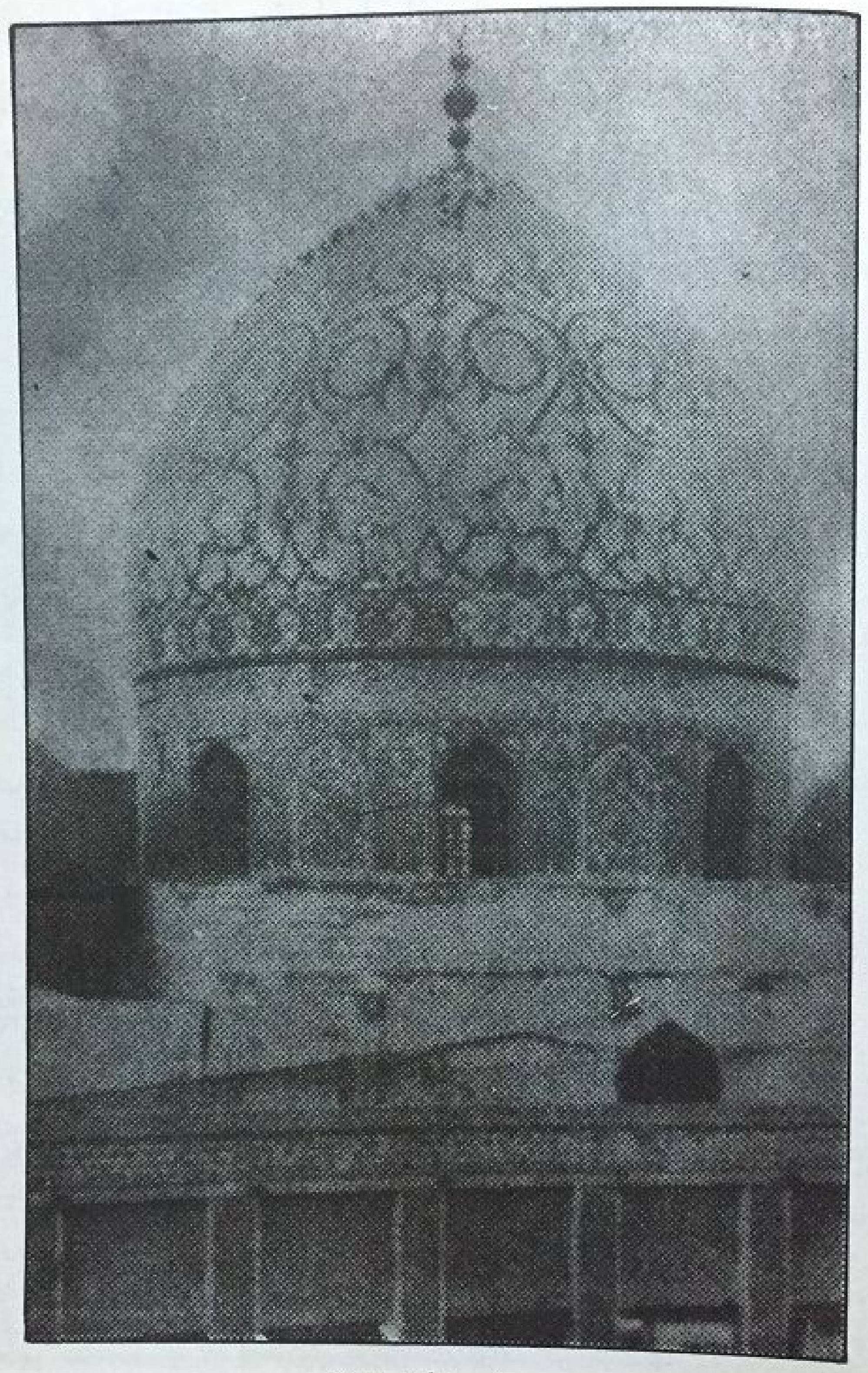
(٤) اطلق عليه المؤلف خطأ اسم «جامع شيخ الغزل».

(٥) شيد هذا الجامع، واسمه جامع الخلفاء، او جامع القصر على يد الخليفة العباسي «على المكتفي» خلال ست سنوات من حكمه «٢٨٩ - ٢٩٥هـ، ٩٠٢ - ٩٠٨م»، أما مأذنته فقد شيدت سنة ٦٧٨هـ - ١٢٧٩م. وقد اخطأ المؤلف حين ذكر ان هذا الجامع لم يشيد قبل سنة ١٢٨٥م وهي السنة التي استولى فيها المغول على بغداد. ذلك لان الجامع شيد قبل سقوط بغداد بيد هولاكو بمقدار حوالي ٣٧٧ سنة. اما مأذنته الحالية فقد شيدها «اباقا» بن هولاكو سنة ٦٧٨هـ - ١٢٧٩م. وقد اعيد بناء الجامع في سنة ١٩٧٤، وسمي باسم جامع الخلفاء.

(٦) لم يعتد المسلمون ابداً طلي قباب المساجد بالذهب، وانما كانت هذه العادة فارسية الاصل والمنشأ، وقد برزت في طلي قباب بعض الاضرحة في الكاظمية وفي سامراء والنجف وكربلاء، وكلها من صنع فارسي ومن هبات فارسية خالصة.

ومع ان المآذن الملحقة بهذه المساجد أقل ارتفاعاً بصفة عامة من كثير من المآذن الاخرى في المدن الشرقية، إلا انها مع ذلك تؤلف في بعض النواحي مظهراً رشيقاً مضيئاً وجميلاً. وجميع هذه القباب مزينة بمشاكي معلقة، وأجزاء متدلية أشبه بالرواسب التي تتدلى من أعالي الكهوف، بالاضافة الى الزخارف الاخرى المعتادة في العمارة التركية والعربي.

ففي منتصف الطريق تقريباً يبدأ العمود بالانتفاخ من الخارج حتى يصل الى ثلثي ارتفاعه، ومن ثم ينتهي في صفة رواق صغير معد لخدمة المؤذن الذي يطلق من هناك اذانه داعياً المسلمين الى الصلاة.



جامع الحيدرخانة

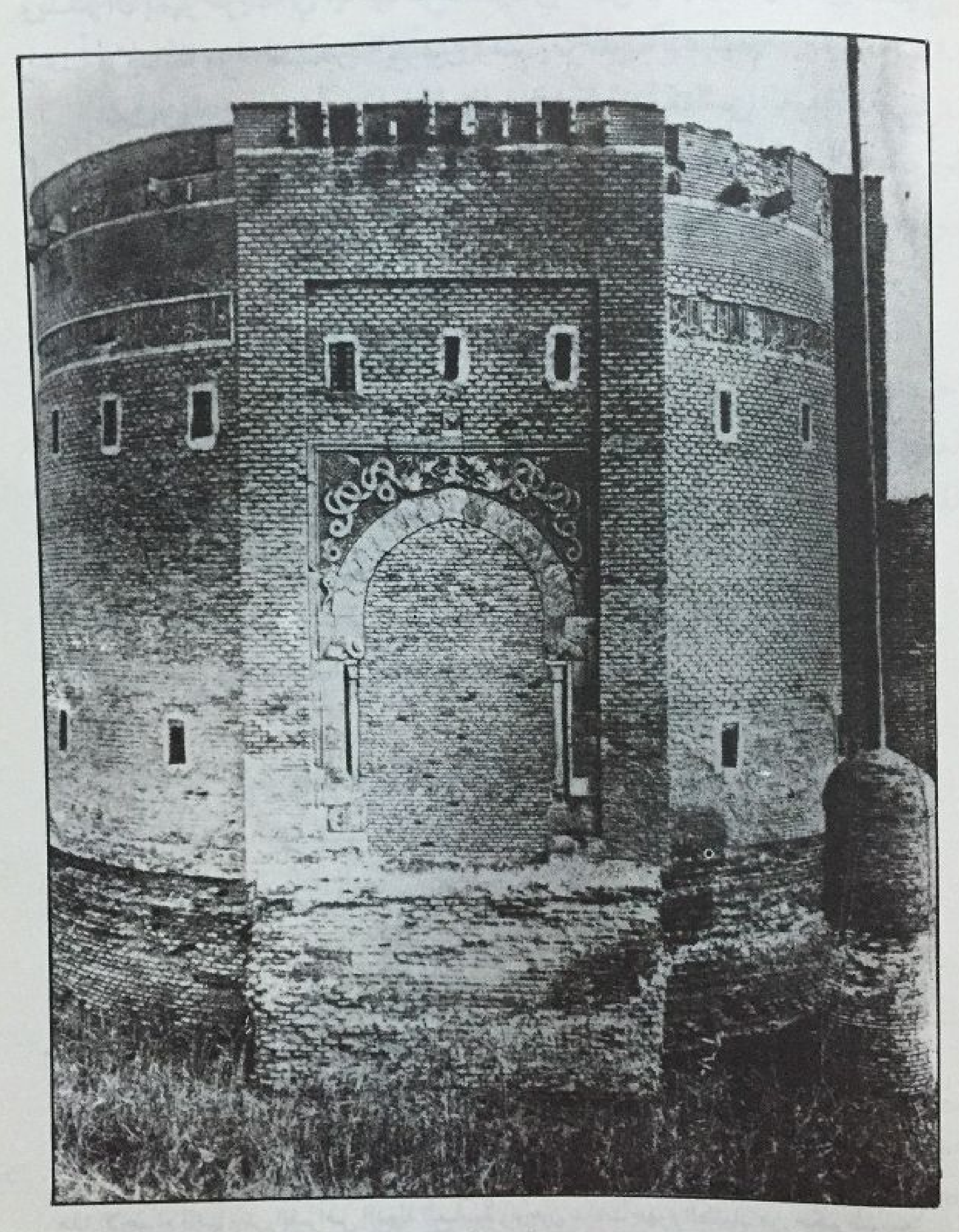
والجمال الذي تتسم به قطع الآجر، وجودته المتماسكة، والذي شيدت به هذه المباني، قد أعان المعمار بمهارة على استخدام الرقش العربي الدقيق، وعلى زخرفة الابواب، والاجزاء الاخرى الثابتة من البناء. وذلك ان الآجر لم يكن يركب دوماً مع قطع القاشي الخضر أو السود، أو ذات الالوان الاخرى المتباينة.

وتكون الاروقة من طراز مستدق، وهي مغلفة من كل الجوانب بأشرطة وفيرة جميلة التناسق، ومفعمة بالالواح المنحوتة من المرمر، والمزوقة في شكل فني بالازهار، والاصص، وغيرها، أو أن تكون مغطاة بكتابات ذات اسلوب وفير وطاغ في استعمال الحروف العربية، وهي تحيط بمثل هذه الابنية احاطة تامة.

ولا يوجد داخل المسجد سوى الشيء الضئيل من المناظر، اذ يشاهد بيض النعام، وبعض المصابيح قليلة الضوء مدلاة من السقف. وتغطى الحصر والسجاد أرضيات هذه المساجد. وتقوم في الجانب الذي يتجه نحو «مكة» فسحة مجوفة صغيرة تشير الى الاتجاه الذي يتجه اليه المصلون، وتكون هذه الفسحة مثلثة الشكل. وبدلاً من أن تملأ هذه الفسحة بالصور والتماثيل، كما هو الامر في معابد الوثنيين، فانها تظل مفتوحة وفارغة في المساجد الاسلامية، وذلك لكي تدلل على وجود الله وعدم رؤيته. «ان سمو الفكرة وسعة التصور الواضحتين في هذا التصرف البسيط، يؤلف تعليقاً مدهشاً على المحاولات التي بذلها جيران المسلمين المتحضرين لتجسيد هذا الأمر أو تشبيهه، وذلك شيء لا حدود له ولا يمكن فهمه»[7].

---

(٧) يبدو ان المؤلف يشير بهذه العبارات الى ماهو شائع في الكنائس المسيحية والافكار المسيحية من تجسيد الله والمسيح والعذراء، في الوقت الذي يعتبر المسلم فيه نفسه عند اداء الصلاة بأنه واقف امام ربه الذي لايحدد مكانه ولا زمانه ولا شكله.



باب الحلبة

يعيش كثير من الدراويش والمتدينين بصفة دائمة داخل الاسوار. ويندر أن يمر غريب في أية ساعة كانت من الليل والنهار، دون أن يشاهد واحداً أو جماعة من المسلمين الورعين وهم يعرضون ادعيتهم.

هنالك تمايز عجيب بين المساجد الشرقية والكنائس الغربية. ففي أوربا تكون أماكن العبادة (كما هو الامر في اسبانيا) ملىء بالجنس اللطيف مع قلة من العجائز، في حين ان امثال هؤلاء النساء لايمكن مشاهدتهن في المسجد الاسلامي[٨]. ومهما كانت الاسباب فلا تمكن الاشارة الى التطور الذي يجعل أزواجهن يسمحون لهن بالظهور علانية.

ففي استطاعة النساء أن تزور احداهن الاخرى، وان يذهبن الى الحمامات متى ما رغبن في ذلك. ومع كل هذا يبدو من غير المرغوب فيه رؤية ذكر وأنثى مجتمعين لوحدهما سوية. ذلك ان القاعدة السارية بين الامم الشرقية، والتي تشاهد بصفة عامة في كل تصرف اجتماعي، هو ان لا يتناول الرجل والمرأة طعامهما سوية ولو في منزلهما الخاص.

تلتحق بكل جامع مدرسة تعتمد في ادارة شؤونها على الهبات الطوعية، ويعلم فيها الصبية مجاناً، القراءة والكتابة، ومعرفة الله، والالمام بالقرآن، وذلك هو نوع التعليم الذي يعني المسلم بتلقينه الى ذريته.

---

(٨) لاتوجد اية موانع تحول دون ذهاب النساء الى المساجد والجوامع واداء الصلاة فيها مع الرجال.

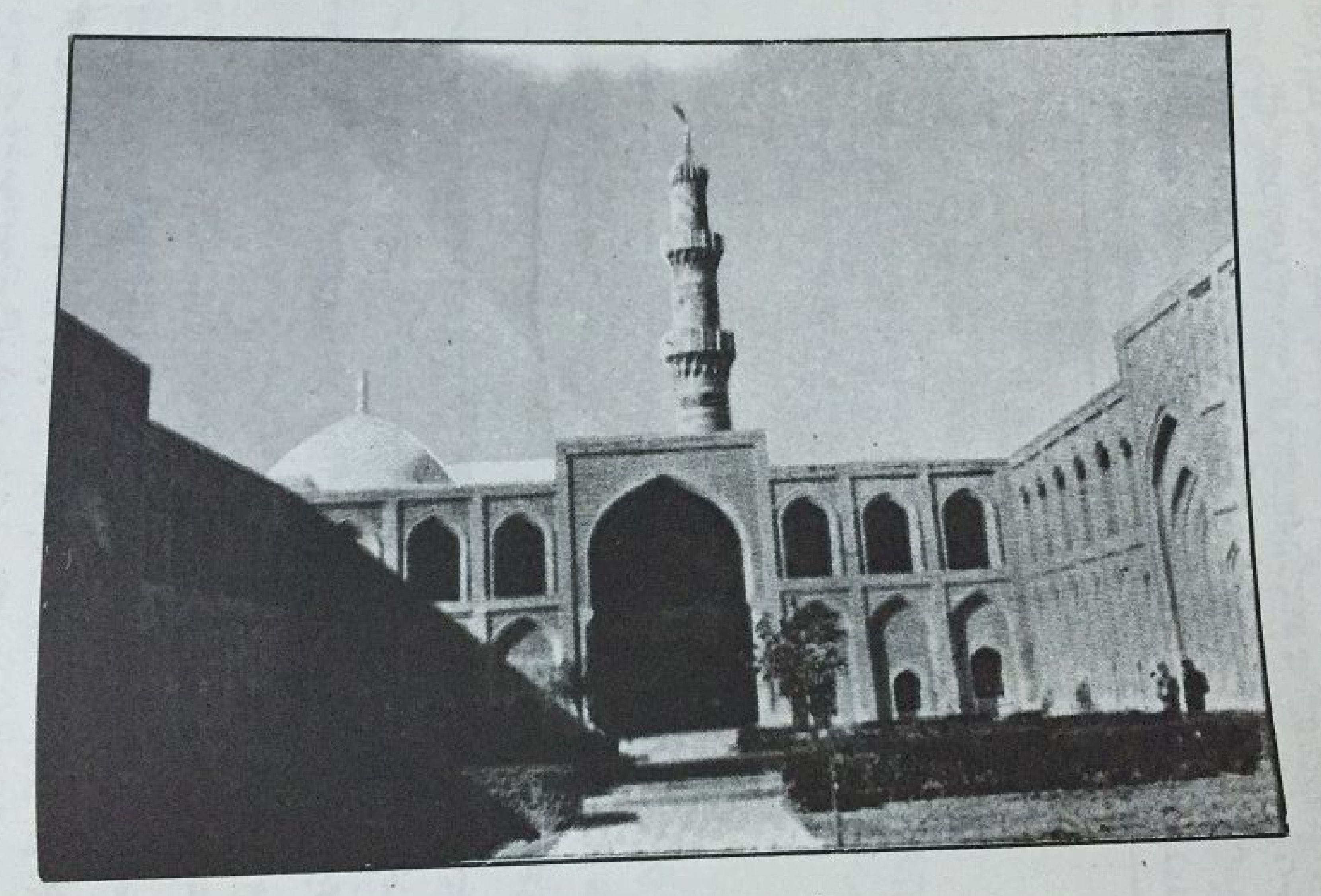
ومنذ ان ظهر المسجد في الاسلام كان الرجال والنساء يؤمونه سوية على حد سواء. وقد ظل هذا الاجراء قائماً حتى انقراض الدولة العباسية، وحين سادت عهود الطغيان من حكم البويهيين والصفويين والاتراك قل تردد النساء على المساجد بل انقطع تقريباً، ليعود في الوقت الحاضر ولو بنسبة ضئيلة جداً.

تقوم على الجانب الشرقي من المدينة اطلال «تكية القلندرية»[٩].
وفي وقت من الاوقات كانت الهبات التي تدفع الى هذه الطائفة التي يحميها الخلفاء، كبيرة جداً. ولكن الاتراك، وهم أقل تمسكاً بتعاليم الاسلام، مالبثوا ان أخذوا يستعملون هذه الهبات لاغراض أخرى دنيئة. وهكذا أجبر العدد القليل الباقي من أفراد هذه الطائفة على أن يعتمدوا في تدبير أمور معيشتهم، على حسنات جيرانهم.

وتذكر لنا قصص «شهرزاد» ان هؤلاء كانوا يحلقون لحاهم وحواجبهم. ولكن يظهر بانهم قد كفوا عن هذا التصرف وغيره من العادات القديمة، وأصبحوا الآن يجوبون البلاد بذات الصفة والاسلوب اللذين يمارسهما الدراويش.

---

(٩) القلندرية تسمية تركية تطلق على الدراويش والمتصوفين والمقصود هنا على ارجح احتمال هي «تكية البكتاشية» التي كانت في الجانب الغربي من بغداد، وفي مكان قريب من محلة «الجعيفر» الحالية. وكانت التكية في الاصل هي الرباط الذي انشأته السيدة «سلجوقي خاتم» زوجة الخليفة الناصر لدين الله العباسي، وقد اقيمت الى جانبه مقبرة دفنت الخاتم فيها.
وقد ثبت الرحالة الدانمركي «نيبور» هذه التكية في الخريطة التي رسمها لمدينة بغداد في ذلك الوقت، وكان داود باشا قد اخرج افراد هذه الطائفة من تلك التكية ومنع عنهم المساعدات المالية والمادية.



الجامعة المستنصرية

ما تزال بقايا «مدرسة المستنصر»، أو كلية العلوم قائمة حتى الآن. وهذه المدرسة شيدها احد احفاد الرسول «محمد»، ولذلك تكثر الاشارة اليها في الحكايات العربية. أما منازل المسافرين في بغداد فإنها وإن كانت كثيرة العدد، لكنها لا تستحق الاشارة الخاصة اليها، بينما تجدر الاشارة الى الانواع الاخرى الموجودة منها في مدن تعد من الدرجة الثانية في بلاد الشرق.

وتؤلف الاسواق في نظري أهم مظهر في المدينة الشرقية. فالشوارع الضيقة أما ان تكون معقودة بالآجر، أو مسقفة بالاغصان الجافة، أو القماش الخشن المشدود بحبال متعارضة تمتد من سقف لآخر. وفي الاوقات التي تشتد فيها الحرارة اثناء الصيف، تكون الشوارع خالية من البشر تقريباً، لكنها اثناء الليل تؤلف اعظم بهجة بالنسبة الي، حيث أروح اتجول في هذه الممرات المعقودة، واختلط بالحشد المرح، ثم اخترقه فيما بعد والظلام الدامس الذي يطبق على هذه الاسواق اثناء النهار، يندر ان يخترقه مرور ماش واحد. أما في اثناء الليل فان الضياء المنطلق سواء من القناديل أو المصابيح، من شأنه ان يبعث البهجة والحياة في هذه الاسواق.

لقد حل الآن عيد «رمضان»[١٠] ولذلك راح الناس الذين تخلوا عن العمل، يتجمعون وهم بأحلى حللهم، وبسراويلهم الغالية، وملابسهم الزاهية، يسيرون في مرح وينشرون البهجة والمسرة في كل مكان.

تتألف الحوانيت القائمة على أي من جانبي الشارع، من غرف صغيرة لا تزيد مساحة الواحد منها على ثمانية اقدام، وتكون واجهته

---

(١٠) يقصد به عيد الفطر المبارك. وكان المسلمون وما فتئوا الى اليوم يحتفلون بعيدي الفطر والاضحى احتفالاً مشهوداً، وان قلت هذه الاحتفالات ومظاهرها في السنين الاخيرة.

مفتوحة، حيث يجلس صاحبه عادة وهو يحمل بيده مروحة، على ارضية الحانوت التي ترتفع زهاء ثلاثة أقدام عن مستوى الشارع. وتنتهي الصفقة، اذا لم تكن ذات اهمية كبيرة وتتطلب وقتاً طويلاً، دون ان يغادر المشتري الشارع.

أما اذا حصل خلاف ذلك فعندئذ يجلس المشتري الى جانب التاجر، ويؤتى بغلايين الدخان والقهوة، ويتم النقاش حول فضية الوزن بكل اثقاله وكثيراً ما كان يشترك معي أحد الانكليز، وبدافع من الاسى والحنق، في التخمينات العالية للاسعار، والتي اقدرها طبقا لذكاء التجار في أمثال هذه المجابهات. وربما لايستطيع احد في الشرق ان يغلب تجار بغداد عدا جيرانهم الفرس، ولا يقدر احد أحسن منهم ان يكتشف في نظرة واحدة نقاط الضعف لدى الزبون.

ولنفرض الآن ان احد المارة (من غير المجربين وانما له حذق في مثل هذه الامور) كان يحوم حول سجادة جذبت انظاره، فاقترب منها، وابدى رغبته في شرائها. فإذا ما سأل البائع عن المبلغ المطلوب، رد عليه هذا بلهجة من عدم المبالاة قائلاً «ستون دولاراً!» فاذا ما قال الراغب في الشراء دهشاً أو متهكماً «لابد انك تقصد عشرة دولارات!» راح البائع يعرب عن تعجبه مغمغماً «ما شاء الله!»[١١] وهو يهز كتفيه، ويصعد حاجبيه، ثم لا يلبث بعد تأن قليل ان يقول «تستطيع أن تأخذها بخمسين» ومن ثم يتنازل الى أربعين، فثلاثين، وحينذاك يرد الراغب بكلمة «لا» ويغادر الحانوت، ولكن ما ان يخطو عشر ياردات حتى يستدعيه البائع، وهكذا تنتقل ملكية تلك السجادة بعشرين دولار، أي ثلث المبلغ الذي طلبه البائع أول مرة.

(١١) كتبها المؤلف باللفظ العربي وبالحروف الانكليزية.

وتنقسم الاسواق الى مجاميع منفصلة، وتتبع كلها نفس الاعمال، وتقع كلها تقريباً في شوارع منفردة. وأوسع الاسواق وأغناها، وأكثرها أناساً، هو «سوق الحارة»[١٢] التي يحتلها باعة الملابس فهنا تقع العين في كل ناحية على الالبسة غالية الاثمان جداً، والمصنوعة من حرير «سورات»[١٣] والسراويل المجلوبة من «كشمير» والسيوف الصقيلة من دمشق، والبنادق الملمعة التي تطلق باشعال عود الثقاب والسجاد المستورد من فارس. ولا يختلف سوق الاحذية هو الآخر في معروضاته الثمينة، وتنوع ألوانها.

ويكشف المتأنقون بالملبس من شباب الشرق، عن حبهم للزينة أكثر من تنوع اشكال احذيتهم وشباشبهم. فالجلود ذات الالوان البراقة هي التي يتم اختيارها غالباً. أما في اسواق العطور فان عطر الورد، هو المادة الغالية التي توفر للبيع، ولقد دفعت مبلغ خمسة جنيهات لشراء «اونس» واحد من هذا العطر. وخير وسيلة للتأكد من جودته هي ان تضع قطرة منه على قطعة من الورق، واذ ذاك يتم التحقق من قوته بسرعة تبخره. وتبر ز قيمته في عدم تركه أية آثار على الورقة. وأفضل نوع من عطر الورد هذا، يتم صنعه في «اسطنبول».

وماء الورد متوفر هو الآخر كثيراً جداً في بلاد الشرق. وتستهلك كميات كبيرة منه في الحمامات. ومن المعتاد أيضاً رش الضيوف به عند زيارتهم أحد الاحتفالات، ويستورد معظمه من بلاد فارس في جرار أو في قناني تحتوي الواحدة منها حوالي غالونين.

---

(١٢) كتبها المؤلف بلفظها العربي **HARRA** والمقصود هنا انها كانت تقع في نفس الموقع الذي قام فيه سوق البزازين على جوانب المستنصرية وجامع الخفافين.

(١٣) سورات **SURAT** احد موانىء الهند وهو اول مكان في الهند استولت عليه شركة الهند الشرقية، وهي شركة انكليزية خالصة، واتخذته مقراً لتوسعها الاستعماري في الشرق، بعد ان انتزعته من الغزاة البرتغاليين سنة ١٦١٢م وبعد احتلاله بسنة اقامت معملاً لصناعة الحرير.

والجوهريون الوحيدون في بغداد هم أما من اليهود أو من المسيحيين[١٤] والذهب الذي يستعملونه من انقى الانواع. وهم يمارسون في صناعته المزيد من الاختبارات الغريبة.

ولايقيم التجار الذين يمتلكون هذه الحوانيت على الدوام فيها. فهم يصلون اليها في الساعة الثامنة صباحاً. ونادراً مايتخلفون عنها اثناء النهار، الا عندما يؤدون صلاتهم. فعندما يسمع صوت المؤذن، يكون المنظر الوحيد المألوف آنذاك، هورؤية الناس الذين طرق الآذان اسماعهم، وقد تخلوا في الحال عن أعمالهم السابقة مهما كان نوعها، واسرعوا من كل صوب لاداء صلاتهم بالتوجه الى الله الخالق.

وحينذاك لا يوجد أي خوف من اللصوص، لان التاجر، وبقصد إبعاد الذباب، ينشر شبكة خفيفة من القماش على سلعته ويتركها دون خوف الى ان يعود اليها بعد انتهاء صلاته.

وحمامات بغداد من نوع غير مألوف جداً. ففي اسطنبول والقاهرة تبنى هذه الحمامات من المرمر عادة. ولما كانت هذه المادة نادرة في هذه الانحاء، فان الناس يستعيضون عنها بالآجر والقار. وفي بلاد الشرق تنفق ساعات كثيرة في أماكن الراحة هذه.

فبعد الخروج من الحمام، عليك ان تضطجع على بساط ناعم لكي تتخلص من الخدر اللذيذ الذي احدثه الحمام. أما إذا ما استيقظت فعليك ان تشغل نفسك باحلام لا حصر لها، حين تشرع بالتدخين، وتناول القهوة.

---

(١٤) انتشرت حرفة الصياغة خلال الجيل الماضي وفي الوقت الحاضر بين الصابئة في الدرجة الاولى، والوافدين الى بغداد من سكان كربلاء والنجف والمناطق الجنوبية الاخرى، فضلاً عن عدد كبير من سكان مدينة الموصل.

ولكن لا يوجد في بغداد من المغريات سوى الشيء القليل. ذلك لأن الماء عكر، والبيوت قذرة، وسكانها نفر سوء، ومع ذلك فقد لاحظت ان بعض النسوة يمضين النهار كله هناك أحياناً، واذ ذاك تعلق عباءة عند الباب كاشارة على عدم السماح للزائرين من الذكور.

وتمثل المساكن بالنسبة الى الشارع مجرد جدار صامت، وعادة ما تكون مربعة الزوايا، تنفتح نوافذها على باحة في مركز الدار تكون مبلطة ونظيفة جداً ومزينة بنخيل قليلة أو احدى النافورات. وتتوفر أربعة انواع من هذه الزوايا بالتعاقب في البيوت المعروفة بثرائها. وهناك رواق صغير وباب يربط بينها ويكون الرواق أو المدخل الابعد عن الشارع، مخصصاً لاستقبال نساء العائلة ويدعى بالحرم.

أما الرواق الخارجي في الجهة المقابلة فيعرف باسم الباب، أي «الديوان» ويكون مفتوحاً أمام الزوار دائماً. وهنا يتكأ خدم المنزل الذين ينهضون واقفين كلما دخل شخص غريب الى البيت.

وتكون الغرف المحيطة بالساحة عالية، ولكن البيوت تتألف من طابق واحد. فعلى مسافة ستة أقدام من الأرض يمتد رواق مسقوف، في داخله جملة من الغرف المفتوحة.

غير ان المظهر الفريد في هذه المنازل هو وجود «السرداب» الذي يكون تحت الارض، ويحجب عنه الجو الخارجي بعناية قدر المستطاع. ولقد علمت ان درجة الحرارة تكون في الاوقات التي يصبح فيها الجو على أحره، حين تكتسح المدينة رياح السموم[١٥] ترتفع في المحرار الى حد مائة واربعة

---

(١٥) كتبها المؤلف سيمون SIMOON وذلك ناتج عن عدم اتقانه تلفظها او عن خطأ مطبعي.

وعشرين درجة فهرنهايت. واذ ذاك يلجأ السكان، في مثل هذه المناسبات، الى السراديب التي تكون ذات برودة منعشة، ويندر ان ترتفع درجة الحرارة فيها الى تسعين درجة. وعلى هذه الشاكلة تعتبر المقارنة نعمة، حين تتصور ان المحرار في انكلترا يرتفع الى تسعين درجة.

وتكون سطوح المنازل منبسطة، لكنها تنقسم بواسطة الجدران الى شرفات يستعملها السكان أماكن للمبيت فيها عند اشتداد حرارة الصيف. وينهض جميع الشرقيين من النوم مبكرين. ويهيء ضوء النهار للناظر، اذا ما صعد الى أعلى السطوح، مشهداً غريباً. وتنهض النسوة أولاً، ثم يعدن بالغليون والقهوة ليتناولها الرجل، ومن ثم يتوجه الى التوضأ وإداء الصلاة.

والفراش الوحيد الذي ينام عليه القوم هي الحصر المحاكة من سعف النخيل، والتي يلقى فوقها غطاء خفيف مصنوع من القطن، ولذلك فلا توجد أية مشقة في حمل هذا الفراش، والانشغال به. وحين تمد النساء هذه الفرش مساء، توضع على كل جانب منها جرة ذات مسامات ملىء بالماء.

وتبرز المدينة كلها كتلة من أزقة ضيقة، وسخة، مظلمة ورطبة، ولا يزيد عرض هذه الازقة، عند قاعدة المنازل، عن تسعة أقدام، في حين تكون الاقسام العليا منها في الغالب مغلقة لوجود النوافذ فيها وينذر في حالات كثيرة، وليست اطلاقاً، مرور اشعة الشمس في هذه الازقة في أي وقت من أوقات النهار، ولذلك يجد الخفاش والبوم فيها الظلمة الملائمة له حتى في منتصف النهار.



موكب الوالي عند خروجه من المسجد

وتـرش الشـوارع بالمـاء عند الصباح وعند المساء، وبذلك تتوفر فيها البرودة اللذيذة، في الوقت الذي تكون فيه درجة حرارة الجو في الخارج لا تطـاق. ووسـائـل اسـالـة المـاء، كما هو الأمـر في القـاهرة وغيرها من مدن الشرق، غير معروفة هنا. وتزود البيوت بالماء الذي يجلب من النهر في جلود يحملهـا الـرجـال على ظهورهم أوعلى ظهور الحمير أو الابل. وفي بعض الساحات المكشوفة تكون الحمير مهيأة لخدمة من يطلبونها . وهذه الحمير من لون فاتح لكنها تكون مبقعة ومنقطة باللون الاحمر. وتبذل اعظم عناية لها، اذ يجري غسلها، وحسها او قص شعرها حين يطول ويتطلب القص.

ومـع ذلـك فان هؤلاء النـاس الـذين لا يأبهـون بـالحيـاة، وغالباً ما يكـونـون غير مكـترثـين بالآلام البشـرية، يشتهرون برأفتهم بالحيوانات. فهـذا الحـمار المسكـين الـذي يلقي المعـاملة القاسية في انكلترة المتحضرة، والذي يتسم بالحرونة وبالبلادة، يكون في المدن الشرقية أكبر حجماً، وأكثر نشـاطـاً. فترى خطواته سريعة هينة، وتندهش حين تراقب سرعته وفطنته وهـو يجري مسرعـاً في الشـوارع المزدحمة، ولا يطلب المساعدة من الراكب الذي يكتفي بتعقب سيقانه.

لاشيء أكثر مضـايقـة في البلدان الشرقية من الكلاب. فالكلب، وان كان يعتـبر في نظـر الاتـراك والعرب حيواناً نجساً، إلا انه ينتشر باعداد كبـيرة في الشـوارع، وتكثـر من النبـاح فيهـا. أمـا بالنظـر الى مظـاهـرها وعـاداتهـا، فانهـا لاتشبـه الكـلاب المـوجـودةفي أوربا إلا قليلاً. فلها آذان طويلة، وأنوف مستدقة، وهي تحمل المزيد من صفات «ابن آوى». وتكون جد مغـرمـة بنهش أعقـاب الاوربيـين، لانهـا ـ كما يقـول احـد المحليين ـ نكتشفهم بالشم حتى وإن كانوا يرتدون الالبسة مثل بقية الآخرين.

لقد أثار بعض جنود البحرية في احدى السفن التي ركبتها، شيئاً من الاستياء لدى السكان، وذلك بالاجراءات التي اتخذها أولئك الجنود للتخلص من المضايقات التي كانوا يعانونها من جملة من الكلاب، التي اعتادت ان تتعقبهم، وتنبح عليهم، وتعضهم اثناء النهار، والتي اتخذت أوجارها في عقر الدار التي كانوا يسكنونها، فكانت تحرمهم بنباحها من النوم اثناء الليل.

لقد حاول أولئك السادة الشبان، اغراء الكلاب بالقاء قطع من الخبز وغيره من تحت النوافذ، ثم لم يلبثوا ان راحوا يقذفونها بأحجار كبيرة. غير ان الكلاب المحتالة اصبحت جد حذرة من هذه اللعبة بعد فترة من الزمن، واذ ذاك انطلق الجند الى السفينة فجلبوا معهم صنارة سمك كبيرة مربوطة بسلك، ووضعوا فيها طعماً من لحم طازج. وحين تقدمت الكلاب متلهفة لالتهام قطعة اللحم، تم سحب الكلب الذي نهش اللحمة، وهو يعول ويرفس، بحبل الى قضبان النوافذ، ومن ثم فصل رأسه عن جسده في الحال. ولقد استمرت هذه العملية لبعض الوقت، وبذلك تخلص أولئك البحارة من عدد من أعدائهم، الى درجة انهم اصطادوا في أحد الايام كلباً شرساً كبير الحجم كالحمار، لم يستطع اثنان من الرجال حمله.

لقد لفت نظري الى هذات الحادث، عواء الكلب، وتزايد الازدحام في الشارع. ولم ينته ذلك الاضطراب إلا بعد أن أعطي أحد العبيد بضع دولارات، لكي يضرب ذلك الحيوان على رأسه ويميته. والشيء الغريب ان هذه الكلاب لا تصاب بالخبل في هذه المدن، حتى وان كانت تعاني المزيد من العطش.



حفلة عرس في الريف

لا يوجد في مظهر البيوت القريبة من الشوارع ما يلفت الانظار. فغالباً ما يصور الرحالون فقر المدن الشرقية وخرابها، باعتمادهم خطأ على رؤية المظاهر المزرية منها، في حين ان من واجب أية حكومة قوية أن تزيل المناظر السيئة. أما وضع البيوت من الداخل فانها ليست مجهزة دوماً بالاثاث الغالية.

غير ان الجدران تكون مكفنة بالمرايا المزينة تزييناًعجيباً بالجمان. كما تغطى السقوف هي الاخرى بنقوش الخشب المحفور الذي يعرض المزيد من حسن الذوق. وفي بيوت الأغنياء تغطي الافرشة القرمزية الجميلة كل الأرائك والأسرة، وتصنع هذه الافرشة من خيوط من الذهب، وتطرز حواشيها بشرائط من الفضة والذهب أيضاً.

ويغطي السجاد من افخر الانواع والصناعات، كل ارضيات الغرف التي يتحرك العبيد فوقها بخطوات غير مسموعة. وترى في كل زاوية من زوايا الغرف معاطف من الفرو، أومن فراء «السمور» حيث يطلب الى الضيف في الجو البارد أن يلف نفسه بها.

لقد اختلطت بكل حرية مع الناس. وكنت على الدوام أجد نفسي ذلك الضيف الذي يحظى بالترحاب. والواقع يعتبر النداء ذا قيمة في مجال التحية. فإذا لم يكن أهل البيت منشغلين مع حريمهم، فان أمسياتهم تكون مشغولة باستقبال الضيوف.

ولعل من أهم المتع التي تسر القوم هي القهوة والغلايين التي يكثر الطلب عليها. وتجري ممارسة لعبة الد اما والشطرنج في بعض الاحيان. كما يستدعى الراقصون والمغنون الذين يحملون معهم قيثاراتهم. وفي حدود



احتفال شعبي بالزواج في احدى القرى

الساعة العاشرة يقدم عشاء خفيف، يتألف من الفواكه الجافة، واللوز والحلويات. وتنتهي الدعوة قبيل منتصف الليل. ولا يكون هذا من الامور الدائمة. فاذا كان هناك موضوع له اهميته يطول الجلوس الى ساعة متأخرة من الليل وتستمتع كل الطبقات خلال اوقات الحر اثناء النهار بالقيلولات التي تعوض عن ساعات قليلة من الليل.



جامع الشيخ عمر السهروردي

ولكـل فرد حرفتـه المخصصـة له . فأمـا أن يكـون من البقـالـين أو التجار، أو موظفـاً لدى الحكـومـة . ولا يتمتع الفرد بأي احترام ان لم يكن لديه عمل يمارسه . ولذلك فان مجرد الشخص المتأنق الذي لا عمل له ، أو الرجل الذي يعيش على الهامش في المدينة ، أمر غير معروف .

وفي الخـارج يصبح أهـل بغداد كسالي فاتري الهمة ، فلا تجد أحداً منهم ينهـد الى ممارسـة عمـل ما ، وانـما تراهم يخلدون الى الكسـل ، وقد امسك كل واحد منهم بغليونه في يد ، وبمسبحته في اليد الأخرى . في حين كان من الضروري قبلا ان يستخدم احدى يدي الصانع في العمل بصفة مستمرة .

أما داخل المدينة فلا توجد في الواقع طبقة من الناس تتمتع بأكثر من هذا . فهم في داخـل حرمهم يعلنـون صراحـة بانهم يعكفون على تعاطي الملذات المحرمـة ، كتنـاول الخمـر ، والعكـوف على الفسـوق . ذلـك ان الحشيش والافيون يؤلفان بعض وسائل السكر الطبيعية لديهم .

ويتصف أهل بغداد اثناء الحديث معهم بالحيوية والامتاع . فلا تجد واحـداً فيـما بينهم مغـرمـاً بالتهريج ، أو انه يفهم جيداً احدى النكات التي تلقى ، او ان يستمتع بها . وهم في تصرفهم كرماء اسخياء ، متحررون من روح التعصب ، ويكشفـون عن كل الفضـائـل السلبيـة لغـيرهم من الشرقيين . وهم شديدو التعلق باطفالهم الى حد بعيد جداً .

وفي الـوقت الـذي اسجـل فيـه شهـادتي عن امثـال هذه الصفات الطيبـة ، فانني لا استطيـع ان اعفي البغـداديـين من بعض العـادات غير المستحبة ، وتلك صفات قيل عنها بانها ناجمة بصفة كلية عن فعل الحكومة الغريبة عن البلاد ، ولا يمكن فصلها عنها . ذلك لأنه حيثما أمكن الحصول على الثروة ، فان الغش يكون أمراً ضرورياً على الاطلاق .

أما من ناحية الملبس فان الطوائف العليا ترتدي جلاليب غالية الثمن مصنوعة من الحرير، وذات لون وردي او براق عادة. وتنفتح هذه الجلاليب من الاردان الى اسفل المقدمة[16] حيث تلفها السراويل المصنوعة من الحرير الكشميري الى الصدر، ثم تلقى فوق هذا الملبس عباءة من قماش غليظ. وتتألف العمائم من اجود انواع الحرير الموصلي ابيض اللون، وربما كانت في شكلها من اجمل ما يلبس في الشرق.

أما افراد الطبقة التي تقل عن ذلك منزلة، فانهم يرتدون سراويل وجواريب من جلد اصفر اللون براق. وتكمل البدلة عادة بحمل خنجر، يكون مقبضه مزيناً تزييناً فاخراً. ويرتدي افراد الطبقة الفقيرة مجرد جلباب مشدود بحزام من الجلد، ومن دون سراويل، ولكن عمائمهم تتألف هي الاخرى من الحرير الابيض الناصع.

وفي الشرق يمتنع اقارب الميت الذين يندبونه عن الذهاب الى الحمامات. هناك سبب يدعو الى الاعتقاد بأن الوصف الذي اعطته «السيدة مونتاغ»[17] عن النساء بالنسبة الى ممارسة وسائل الراحة المفرطة وحتى الضرورية، انما هو وصف صحيح جداً.

فالحمامات تستعمل على الدوام بمثابة اجراءات طبية. ومع ان الانواع الحارة والباردة منها متوفرة للاستعمال، الا ان الماء البارد هو المفضل دوماً في الوضوء. واستعمال العطور في امثال هذه المناسبات وغيرها، يعود تاريخه الى ابعد العصور الموغلة في القدم. وما يزال الشرقيون يرشون ماء

---

(١٦) يعرف هذا الجلباب عندنا حتى الآن باسم «الصاية» وهو يصنع عادة من قماش خفيف. وفي خارج بغداد لا يرتدي الاهلون السراويل فوق الصاية ابداً، وتؤلف الصاية والثوب والسروال من تحتها، اللباس المعتاد ارتداؤه ايام الصيف حسب.

(١٧) السيدة مونتاغ MME MONTAGUE احدى الرحالات الفرنسيات التي زارت كثيراً من بلاد الشرق في اوائل القرن التاسع عشر.

الورد على ضيوفهم، ويعطرونهم بعود النـــد.

ولا يظهر سوى عدد قليل من النسـاء اثناء المناسبات الضرورية في الشوارع، الا في الوقت الذي يذهبن فيه الى الحمام. ولكن عندما يفعلن ذلك يمتطين الحمير، ويغطين اجسامهن بكاملها فلا يستطيع المرء ان يظفر بنظرة منهن. ويكـون وجـه المرأة نصف مخفي بحجاب خفيف من الحرير الابيض، او بحجـاب مصنـوع من شعـور الخيـل، فيـه فتحتان ترى منهما عيناها السوداءان المتلألأتان. وما يزال النساء يزججن حواجبهن واهدابهن بمسحـوق رطب اسـود اللون، ورد ذكـره في التـوراة في سفـر الملوك (الجزء الثاني ٩ : ٣٠) حيث جاء فيه وصف ايزابيل[١٨] بأنها كانت تصبغ وجهها او حسب العبـارة العـبريـة الصحيحة انها كانت «تصبغ عينيها». ويستعمل الاثمد، واللبان، او اللوز المحروق، وجملة مواد اخرى لهذا الغرض.

والاعتقـاد السـائـد انه باضافة حلقـة خارجيـة سوداء مستـديرة، يتعـاظم رونق العـين، وان ذلـك يكـون مفيـداً للنظر ايضـاً. ويحفظ هذا المسحوق عادة في محفظة صغيرة من الخشب، ويستعمل بأداة مصنوعة من ذات المادة.

ويـرتـدي غير المتزوجين من شبـان الطبقـة المتوسطة قميصاً احمر اللون، في حين يرتـدي المتـزوجـون قمصـان زرقـاء. امـا النسـاء، وهن

---

(١٨) ايزابيـل JEZEBEL.
هي زوجة «احاب» احد الملوك اليهود وكان ابوها «ايث بعل» ملكاً على مدينة صور وقسيساً في الـوقت ذاتـه لمعبد «استهرات» «اي عشتروت» وقد اشتهرت ايزابيل بجمالها وبمعاداتها الشديدة لعبادة «يهوه».

مفرطات في الجمال، فانهن، مثل «ربيكا»[١٩] يشاهدن في مجموعات، وقد تفلعَن بطرحات وهن ينقلن الماء. وتكون قاماتهن طويلة واكواعهن في عهد الشباب مدورة، واشكالهن جيدة، وهن يتبخترن منتصبات بيسر ورشاقة. لكن ما ان يكبرن حتى ينحنين بمقدار الضعف تقريباً، ويصبحن من المخلوقات قبيحة الصور.

في الفترة التي دونت فيهاهذه الامور، كان عدد سكان بغداد الثابتين منهم والمقيمين فيها، يقدر بمائة وعشرين الف نسمة. ويتألف ثلثا هذا العدد من خليط من الفرس، والترك، والعرب. اما البقية فانهم من اليهود والمسيحيين.

يؤلف الارمن اكبر قسم من المسيحيين الساكنين في بغداد، وهم عنصر مدبر لاموره، غني في ثرواته. ولذلك تكون اشخاصهم واموالهم محترمة، الا في الاوقات التي يشتد فيها الاضطراب كثيراً. ويشتغل معظمهم بالامور المالية التي لم يتدرب الاتراك على النهوض بها. ولكن لا يعهد الى الارمن دوماً بالمناصب الرفيعة في الدولة، ولديهم مطران وكنيسة صغيرة.

وتضم بغداد ايضاً وتحت الاسم العام «كلداني»[٢٠] طائفتين اخريين

---

(١٩) ربيكا REBECCA اسم فتاة مغامرة ورد ذكرها في «سفر الخليقة» ٢٤ - ٦٠.
التفت حولها طائفة واسعة من الشبان فقادتهم لاقتحام ابواب احدى القلاع. وفي سنة ١٨٤٣م ظهرت في انكلترا حركة شغب واسعة قام بها عدد من الشبان الذين كانوا يرتدون ملابس الفتيات ويركبون الخيول وقد تزعمهم شاب كان يعرف لديهم باسم «ربيكا» وكان يرتدي هو الآخر ملابس الفتيات.

(٢٠) اطلق عليهم اسم كلدي KULDEE بدلاً من كلداني وهو الاسم الشائع.

من المسيحيين هم اليعاقبة[٢١] والنساطرة. والطائفة الاخيرة انشأها رئيسهم الذي يحملون اسمه، والذي استنكرت آراؤه في مجمع «افسوس»[٢٢].

وهم يعتقدون بوجود طبيعتين للسيد المسيح، ويسمحون لرهبانهم بأن يتزوجوا. وعدد افراد هذه الطائفة كبير على مقربة من الموصل، وفي كردستان. وهم يملكون جملة من الاديرة، ولهم اتصالات مع حملة هذه العقيدة في انحاء اخرى من الشرق. وهم يستعملون في كنائسهم الحروف السريانية في الكتابة.

وكذلك يوجد في العراق بعض «الصابئة» أو المسيحيين الذين يتبعون «القديس يوحنا»[٢٣] والعقيدة الصحيحة لهذه الطائفة غير معروفة، وهم يعترفون بوجود الدين الاسلامي.

ويوجد في بغداد حوالي سبعة آلاف يهودي. وقد وجدت بين هذا العنصر المنتشر في كل انحاء العالم، والذي احتككت به، ان اليهود هنا يحتفظون بدرجة اوسع من المميزات الشخصية والخلقية التي وصفتهم بها التوراة. فهم يعتبرون انفسهم جزءاً من عشر قبائل رفضت العودة الى

---

(٢١) كتبها المؤلف خطأ باسم سوكوبتس SOCOBITES واعتقد ان الخطأ مطبعي اذ وضع حرف س S بدلاً من حرف جي J.

(٢٢) نسبة الى نسطورس مؤسس هذه الطائفة والذي نصبه الانبراطور ثيودوسيوس الثاني بطريركاً على القسطنطينية سنة ٤٢٨م وكانت تعاليم نسطورس تقول بوجود شخصيتين او طبيعتين للسيد المسيح، هما شخصية الانسان وشخصية الله.

اما مجمع افسوس فهو المجمع الذي انعقد في مدينة افسوس قرب انطاكية والذي ظهر فيه اول انقسام بارز في الكنيسة المسيحية في ذلك الوقت.

(٢٣) القديس يوحنا ST. JOHN هو المعروف باسم يوحنا المعمدان وابن خالة المسيح عيسى (ع) وقد بشر بظهور المسيح فاعدمه ملك القدس بسبب ذلك وكان يوحنا هذا يعيش على ضفاف نهر الاردن، ويكثر من الغطس فيه ولذلك سمي بالمعمدان.

بيت المقدس، ظناً منها ان هيكلها هناك لا يعاد بناؤه، وذلك عندما اصدر كورش اوامره اليهم بأن يعودوا الى هناك.

غير ان آخرين منهم ينكرون مثل هذا القول، ويدعون بأنهم قسم من اولئك الذين جيء بهم في السبي الاول[٢٤]، وانهم قد استقروا في مدن ماذي.

على ان المسلمين ينظرون الى يهود بغداد نظرة ازدراء تفوق نظرة المسيحيين اليهم في «لندن»، كما ان احوالهم العامة ليست سيئة نسبياً. وهم يسكنون في حي منفصل من المدينة، تحت امرة حاخام يكون مسؤ ولاً امام باشا بغداد عن تصرفاتهم. ولما كان اليهود يشاركون في شؤ ون الدولة، فقد اصبح بعضهم من كبار الموظفين، بل انهم قد حصلوا حتى على مقعد لهم في ديوان الباشا.

لست اعرف شيئاً يثير اهتماماتنا بتأريخ هذا العنصر المنتشر في كل مكان من الارض، والمنكمش على نفسه، اكثر من اهتمامنا برابطة الوحدة القوية التي تربط اليهود فيما بينهم. فلا يوجد في بغداد شحاذون من اليهود.

فاذا ما اصيب احدهم بنكسة، سارع الاثرياء منهم الى نجدته. وهم في معاملاتهم فيما بينهم، وفي احاديثهم مع بعضهم البعض يستعملون عبارات «الاخوة»، و«ابناء البلاد» وما شاكل ذلك.

---

(٢٤) السبي الاول لليهود هو الذي قام به الملك الآشوري «تغلات بلزر الثالث ٧٤٦ - ٧٢٧ ق.»، الذي قام بحملة على سوريا وفلسطين سنة ٧٣٢ق.م فاستولى عليهما، وسبى الآلوف من اليهود، وجاء بهم الى العراق، لكنه لم يسمح لهم بالسكن داخل المملكة الآشورية، وانما وطنهم في الاماكن الجبلية من حدود آشور والتي كانت تقع عند حدود تركيا وايران (ماذي)، وكان من بين من سبي معهم نبيهم «ناحوم» الذي راح ينذر «نينوى» بالويل والثبور ويتنبأ بسقوطها.



سوق الموصل

بقيت بغداد خلال جملة من القرون في ايدي المماليك تماماً. ومع ان الباشا يتسلم تعيينه اسمياً من السلطان، الا انه كان يختار من لدن المماليك، ومن الافراد الخاصين بالمماليك انفسهم. وينعقد ديوان الباشا كل يوم جمعة. وهويتألف من رؤساء الدوائر، وذلك لمناقشة الشؤون العامة في حينه. غير ان جميع الموظفين في عدد من الدوائر يتصرفون بالتفصيل من دون ادنى تدخل من هذه الهيئة.

تتألف التجارة في بغداد من فرعين، هما المتاجرة مع الهند من جهة، والمتاجرة مع فارس من الجهة الاخرى. ولقد ازدادت المتاجرة مع الهند في السنوات الاخيرة، في حين تدنت المتاجرة مع بلاد فارس. ويعود ذلك في الدرجة الاولى، الى ان التجارة التي كانت تحدث هنا قبلاً، قد وجدت طريقها المباشر من «ارضروم» الى اسطنبول.

فالسكر والحرير، والملابس الناعمة والخشنة، وغيرها، ترد كلها من الهند ويتم توزيعها في بلاد كردستان، وسوريا، وآسيا الصغرى.

وتتراوح حمولة السفن التي تنقل هذه السلع بين بغداد والبصرة بصفة عامة، بين مائة ومائتي طن. وهي شبيهة بالسفن التي تستخدم في الخليج العربي، مع استثناء واحد هو انها تكون اوطأ في الماء.

ولهذه السفن اشرعة واسعة، وصواري قصيرة، ذات قلوع نحاسية تمخر المياه على عمق خمسة او ستة اقدام، ولا تستخدم الا لمدة سبعة اشهر في السنة.

وتبدأ هذه السفن رحلتها بصفة عامة من البصرة في الاسبوع الاول من شهر كانون الاول، ومن ثم تسير بعكس التيار طيلة الطريق اذا ما

توفرت الـريح الجنوبية الغربية . وتستغرق رحلتها حوالي شهر. أما السفن الصغرى فانهـا تقطـع ذات المسافة، ومقدارها اربعمائة وعشرون ميلاً، في مدة عشرة ايام ليس الا .

وعمال السفن من الرجال الاقوياء الاشداء يعرفون باسم «الملاحين»[٢٥] والاجور المعتادة التي يتناولونها طيلة الرحلة تبلغ خمسة عشر قرشاً، وهذا المبلغ لا يساوي دولاراً واحداً، كل ذلك مقابل اعمالهم المضنية في جر السفن خلال القسم الاعظم من الليـل والنهـار، ضد تيـار يجري بمعـدل خمسـة او ستة اميـال في السـاعة الواحدة. وباستثناء فترة قصيرة لتناول طعام الغداء واداء الصلاة، فان هؤلاء الملاحين يعملون منذ شروق الشمس حتى غروبها، اما اثناء الليل فتربط السفينة عند ضفة النهر.

وتتألف الحمـولات التي تجلبهـا السفن الكبرى، من اغلى السلع المجلوبـة من الهنـد.او الصين. أما بدائلها التي يجري تحميلها من البصرة، فانهـا تتألف من العفص، والنحاس، والحرير الخام، والملح المجلو ب من الجـزيـرة. وتصنـع السفن الصغـيرة بشكل منتظم من الواح تطلى بالقار. وينـدر ان تبـدأ الـرحلة على انفراد، وانما تسير السفن في مجموعات تتألف من عشر، اوخمس عشر سفينة، وذلك لكي تتجنب تأدية الرسوم لاي من الشيوخ الصغار. غير ان الكمارك الاعتيادية، الى جانب الهدايا الاخرى، يتم دفعهـا الى قبـائـل بني لام، والمنتفق،والقبائل الاخرى القوية. وتبلغ هذه الكمارك بالنسبة الى السفن الكبرى، زهاء ثلاثين دولاراً عن كل رحلة.

---

(٢٥) كتبها المؤلف باللفظ العربي وبالحروف الانكليزية هكذا ملاح MALLAHA.

الفصـــل الرابـــع

الطـاعـون يقترب من بغداد. تبلد في الاحساس. انذار مفاجيء. وفيـات واسعـة. قطعـان من اللصـوص. مقتـل زوجـة مصطفى. وفـاة «النـواب» وكـل أفـراد بيتـه. منظر مخيف. الفيضان يطغى على المدينة. مشهد زوجة عبدالله. مغادرة بغداد

في شهر نيسان سنة ١٨٣١، وبعد أن كمن الطاعون بعض الوقت، في سواحل بحر «اليوكسين»[1]، انـدفع الآن الى بلاد الرافدين، وأخذ يقترب بالتدريج من بغداد. لقد راح يواصل مسيرته المهلكة المريعة من قرية الى قرية، فيطغى - مثل لجة الطوفان - على كل الحياة التي تقع تحت وطأة تقدمه المميت.

---

(١) بحر اليوكسين EXINE يقصد به البحر الاسود.

لقد كنا نسمع يوم انباء اقترابه، ولكننا كنا نسمع ذلك همساً، وباحساس متبلد فاتر. ولقد حاولت هيئاتنا الدبلوماسية عبثاً حمل الباشا على انشاء محجر صحي، أو اتخاذ الاجراءات الاحتياطية الاخرى. ولكن الباشا كان يقنع نفسه بجواب مخالف لرسائلنا، ولروح القرآن، ومن شأنه ان يجتذب الوباء القادم، بدلاً من أن يبعده.

والذي تنبغي ملاحظته ان الطاعون قد انتشر أول الامر في الحي اليهودي، وكان ذلك ناتجاً على أكثر احتمال من استعمال اليهود لمواد الالبسة. فقد مات في ذلك الحي بغتة خمسة افراد في بيت واحد. ومع ان المرض قد امتد بسرعة الى البيوت المجاورة، الا ان الحكومة والسكان لم يتحركوا بعد.

ولقد احسنت الحكومة صنعاً في تنفيذ ومقاومة الاشاعات التي أخذت تنتشر عن هذه الوفيات، لكنها لم تفعل أكثر من ذلك. وما خلا اعمال دفن الموتى التي غدت متعددة في الحال، وبكاء النساء المستمر للمتوفين، فلا يوجد أي شيء من شأنه أن يذكر الغريب، بان ذلك الامر المتميز بأهمية غير اعتيادية، يمر الآن من حواليه. ذلك لان الاسواق ما تزال تتلقى تجهيزاتها المعتادة، والمقاهي تعج بالجالسين فيها، والنساء يواصلن تعقب اشغالهن الاعتيادية.

على ان مثل هذا الوضع لم يدم طويلا. فسرعان ما برز احساس مفاجىء بالخطر، وظهر هذا الاحساس في صفة غير متوقعة وشاذة، كما هو شأن الناس في عدم اكتراثهم السابق. لقد راحوا يحدقون بأبصارهم وكأنهم قد استيقظوا الآن من حلم مرعب. لابد لهم أن يهربوا ولكن الى أين؟ الى الصحراء؟ ان البدو يختبئون هناك فبي كل منعطف لكي يسلبوا ويدمروا أولئك الذين يحاولون مغادرة المدينة، وهم يحملون معهم أشياءهم الثمينة!.

ايتوجهون الى النهر؟ لقد اصبح كل زورق مزدحم بالناس، والمرض يتعقبهم وهم في فرارهم هذا. لقد مكث الورعون والمتعصبون في المدينة، وذلك اطاعة لايمانهم بقوانين القضاء والقدر التي لاتتغير، ومعهم غيرهم من المسلمين ذوي الاحساس المتبلد، وهم ينتظرون وقوع ماهو أسوأ وأمر. غير ان المقيم البريطاني[٢] والارمن، وغيرهم من المسيحيين، لم يكونوا على هذه الشاكلة.

فعلى النقيض من ذلك اتخذ هؤلاء كل اجراء ممكن لوقف تقدم الوباء. فقد حول كل بيت الى مخزن لمواد المعيشة، وسدت أبواب المنازل، واحكم اغلاق النوافذ وتحصينها، واعطي الخيار لأولئك الذين اختاروا هذا الوضع أما أن يشاركوا الناس في مجلسهم هذا، أو أن يخرجوا.

وبقصد الحصول على ضروريات الحياة فان كل ما بقي لهؤلاء من اتصال، كان مع جيرانهم. فقد كان يتم تغطيس كل هذه الاشياء الضرورية بالماء أول الأمر، ومن ثم ترفع بحبل الى جدران البيت. ومع ذلك فان احتياطاتهم هذه لم تبرهن على جدواها في أية مناسبة.

ولقد وجد في النهاية ان من المستحيل منع الخدم من زيارة أقاربهم المرضى أو الموتى، وبذلك كان هؤلاء في حالات عديدة ينقلون الوباء الى جملة من اقاربهم الاصحاء. وهذا ما حدث بالنسبة الى جماعة المقيم البريطاني، الذين رحلوا الى البصرة بعد أن مات من بينهم اثنان أو ثلاثة أنفار، وبذلك ظفرت اجراءاتهم الاحترازية هذه بنجاح أفضل.

---

(٢) كان المقيم البريطاني في بغداد، اثناء زيارة المؤلف لها هو المستر روبرت تايلر R. TAYLOR الذي تولى المقيمية خلال الفترة ١٨٣٠ - ١٨٣١م، وكان تايلر هذا من اوائل الذين نقبوا عن الآثار في المدن السومرية القديمة.

وحتى الآن فانني لم أقدم على اتخاذ أي اجراء غير اعتيادي بنفسي، وانما كنت أواصل مسيرتي كما كانت قبلا. وأخيراً وصل الطاعون الى المحلة التي كنت أقيم فيها. كانت الدار التي كنت أسكنها أكثر ارتفاعاً من الدور المحيطة بها، ولذلك فقد توفرت لدي الفرصة المهتبلة لمراقبة سرعة انتشار الوباء. لقد خف بالتدريج عدد أولئك الذين كانوا يثقلون السقوف بأفرشتهم أول الأمر. ففي بيت واحد تناقص عدد سكانه، خلال ثلاثة اسابيع، من خمسة وعشرين نفراً، الى ستة أنفار حسب، وسرعان ما اختفى هؤلاء ايضاً، ولم اكن اعرف هل كان سبب اختفائهم هو الموت أم الهرب.

بلغ الطاعون الآن ذروته. لقد زالت الآن كل وسائل التمايز في المجتمع، ولم يعد أحد يأبه على نطاق واسع، لا بالاصدقاء ولا بالأقارب. ويبدو ان اصبع «الله» كانت تشير الى هذه المدينة المقدسة. قال لي أحد الملائين حين كنت اتحدث معه، مشيراً الى باب المسجد «الله من فوقنا، . الطاعون الاحمر يتحرك للطيران وهو أشبه بالبومة، ومن تحته الخراب الشامل يتعقب سبيله!» كان يموت كل يوم ألف شخص. وكانت مقاعد العدالة خالية، وندب الموتى الذي كان قبلا يملأ الجو بلا انقطاع، قد خمد الآن، وتحول الى صمت وهدوء مخيفين، ذلك ان الموتى تركوا بلا دفن في كل مكان.

ومن ثم ظهر عدد من الاوباش، الذين تشجعوا - رغم الاوضاع المخيفة المحيطة بهم، الى تشكيل عصابات تحت أمرة زعماء منهم أكثر سيطرة، فراحت هذه العصابات تكتسح الشوارع. لقد مررت في احدى المناسبات بفئة من هؤلاء الاوباش كانت قد تجمعت في احدى الشقق الواطئة، فوجدتها تتحرك مهتاجة مستوفزة وكأنها تتهيأ للاقدام على ارتكاب أعمالها الجرمية.

كانت هنالك عجوز شمطاء قد انحنى قوامها فأصبح بمقدار الضعف، وهي تجهز أولئك الاوباش في روحية شريرة بقطع ومن لحم نصف مشوي. وكانت قلة من الرجال الذين تغلب عليهم أولئك السابقون، ملقون على الأرض دون حراك، في حين راح آخرون يصرخون ويعولون اشبه بالذئاب الجائعة، وهم يلوحون - ازدراء بسلامة رفاقهم - بخناجرهم وسيوفهم، أو يطلقون نيران بنادقهم على سقف تلك الشقة.

ولكن وسط هذا الضجيج، والدخان، والجلبة، واضطراب مثل هذا المكان الشرير، جلس القسم الاعظم من الافراد الحاضرين في صمت، وعيونهم تحدق في هذا الجو المخبول من الوحشية والشراسة الذي احاق بهذه الارواح وهم ينتظرون مع كل ذاك ما سيتركه هذا الجو من تأثير في احداث حالة من الهياج تناسيهم لمعاودة الهجوم كرة أخرى.

لقد كان منظراً مرعباً حقاً، ولم تكن مشاهد الفزع التي كان من حظى رؤيتها بعد أن حييت، قد أزالت من مخيلتي ذلك الانطباع الذي تكون لدي أثر نظرة خاطفة وقعت على مثل هذه الشاكلة. ففي الوقت الذي تخط فيه يدي الآن هذه السطور، وبعد مضي فترة طويلة من الوقت حتى الوقت الحاضر، لا استطيع أن أتذكر ذلك الحادث من دون ان اصاب بقشعريرة.

كانت هذه العصابات تتجول من بيت الى آخر، تنهب ما فيه، وتقتل الاحياء ان كان ذلك ضرورياً. فعملية الموت التي تعهد الطاعون بتنفيذ النصف منها، قد كملت الآن بأفعال هؤلاء الاشرار.

بعد بضعة أشهر من هذه الفترة التي أشرت اليها الآن، تحدث الي «مصطفى أغا»، وهو من اصدقائي الخاصين، عن زيارة قام بها أولئك

الاوغـاد لمنزله . كان «مصطفى» بعد ان ضربه الوباء ممداً فوق بساط على أرضيـة غرفتـه . وكـان اثنـان من افـراد بيته قد سقطا جثتين هامدتين على مسـافـة ما منـه . كانت زوجته ، وهوشديد التعلق بها جداً ، حاضرة عنده ، وقد وضعت رأسه في حضنها .

انفجرت ضوضاء عنيفة في الشارع ، انه ايذان ببدء الهجوم العنيف على باب المنزل ، وما لبث القتال ان انفجر ، وكانت الصيحات والاندفاع نحـو درجـات السلم تسمـع بوضـوح ، وسرعان ما كان اللصوص في وسط الغـرفـة . قال لي مصطفى أغا «لقد قرأت في عيونهم الغرض الذي يبغونه ، لكنني ضربت من لدنهم ولم استطـع أن أرفـع اصبعاً واحداً لانقاذ زوجتي ، التي كنت أود فرحاً أن أفتـديهـا بحياتي .

اقـترب أحـد الأوغـاد منهـا ، فلم يكن التوسـل اليه بالابقاء على حياتهـا أمـراً مجديـاً . لقد استطاع جمالها الاخاذ ان يشل ساعد ذلك الوغد لفترة ما ، ولكنها كانت فترة قصيرة ، اذ سرعان ما رفع الوحش خنجره بيده عالياً ، ثم انهال به عليها ، وتركها جثة هامدة بجانبي . ومع ان جسمها كان بارداً ، غير نابض بالحياة ، الا انني شعرت بدمائها الحارة تلفني في اللحظة التي انتهت فيها حياتها بسرعة .

كانت عيناي مسمرتين في النظرة الخالية التي احدثها الموت في عيني زوجتي . ولم استطـع حتى ان اتحرك حين انحنى الـوغـد بجانبي ، وأخرج مديـة اشبـه بالاصـابـع ، وانتـزع بها المجـوهرات من يدي . لم أكن لاشعر بلمسة ذلك الوغد الذي سلبني أثمن ما كنت اعتنز به في حياتي .

لقـد بدت أشكـال رفـاقـه الذين انهمكوا في نهب كل ما في الغرفة ، لعقلي الكليل وهم يتحركون ويتنقلون ، وكأنهم يؤلفون ألفاً من الاشباح

الخفية. فقد كانت نظراتهم تقدح شرراً وهم يشيرون نحوي، في الوقت الذي كانوا فيه يومئون بإيماءات شيطانية، وضحكات مرعبة، الى الضحية البريئة الملقاة بجانبي، وأخيراً طغى على مشاعري تبلد سعيد!.

لست أعرف مقدار المدة التي بقيت خلالها على مثل هذه الحال. ولكن عندما شفيت من مرضي، فارقتني حمى الانفعال، فعاد الدم البارد يجري في عروقي مرة أخرى. لقد وجدت الى جانبي أحد الخدم المخلصين، منهمكاً في غسل اصداغي بالماء. لقد نجا هذا الانسان من مذبحة حلت بأخوانه، حين اخفى نفسه، في الوقت الذي ما زال فيه القتلة موجودين في الدار. ماكان لي ان اشفى لولم يعاني عبدي هذا الكثير في سبيل احسانه الي.

كان يسكن هنا في بغداد احد «النواب»[٣] الهنود، وهو من متقاعدي الحكومة البريطانية وقد ظهر الطاعون في بيته، فسقط عدد من أفراد البيت ضحايا الوباء. أما هو ومن بقي معه فقد غادروا في قارب الى البصرة. ولم يلبث القارب ان شله في النهر على بعد عشرة أميال جنوباً فلم يستطع من كان فيه تحريكه. واذ ذاك شرع بالقاء راكبي القارب في النهر واحداً تلو الأخر، وهكذا لم يبق من الاربعين شخصاً الذين استقلوا القارب على قيد الحياة، سوى النواب نفسه وواحد من الخدم ليس إلا، حيث عادا سوية الى الشاطيء، ومن ثم جرى نقلهما فيما بعد.

بعد مرور سنة على ذلك الحادث تجولت في دار ذلك «النواب» فوجدت ان اثاثها الفاخر، وسكانها الذين يعدون أربعين نفراً، قد زالت

---

(٣) النواب لقب كان الانكليز يمنحونه لمن كانوا يخدمون اغراضهم الاستعمارية في الهند طيلة سني الاحتلال البريطاني الطويل الامد لها، وهو يعادل منصب «وزير» وكان بعض هؤلاء النواب، وهم من الطائفة الشيعية، قد استقروا في بغداد منذ امد بعيد، وكانت ترسل اليهم من الهند واردات املاكهم القائمة هناك. وكان بيت «النواب» يقع في جانب الكرخ، على نهر دجلة، قبالة بناية ثانوية الكرخ المسائية.

كلها من الوجود، وقد تداعت جدران الدار وانقضّت، ووطأتها الاقدام.

لقد شهدت اثناء النكبة أمثلة عديدة من السخاء والتضحية بالنفس في سبيل الاخرين. وقد روى لي كثير من هؤلاء المزيد من هذه القصص فيما بعد.

لقد سمع أحد الايطاليين ان صديقاً له من ابناء وطنه قد ألقي به وهو مصاب بذات الوباء عند احد ابواب المدينة. فما كان من صديقه هذا الا ان سارع بالبحث عنه. ولقد عثر عليه فوجده غير قادر على الحركة وهو في حالة تدعو الى الرثاء، واذ ذاك أسرع بحمله على ظهره، ونقله الى منزله الخاص به، والذي كانت تقيم فيه زوجته واطفاله أيضاً، فأقام له محجراً صحياً هناك، وعاش هو وصديقه المريض الى ان شفي من مرضه تماماً، دون ان يصاب احد من افراد البيت بأذى، نتيجة الرأفة التي أظهرها سيدهم تجاه ذلك المريض.

وهناك حادثة مماثلة وقعت أيضاً، عندما هاجم الوباء زوجة احد المبشرين الانكليز الذي كان يقيم هنا منذ بضعة شهور. لم يهدأ للزوج بال، ولكن كل ما فعله لانقاذها من المرض، انه هرب بها من المدينة، لكن صحتها ما لبثت ان تدنت بالتدريج، ومن ثم لفظت انفاسها بين يديه.

لقد امتدت الوقاية لتبسط حمايتها على امثلة من الاخلاص والوفاء. لقد استطاع ذلك الزوج الثاكل، الذي لم يأبه للحياة وهو في غمرة احزانه، ان يعيش لفترة مقبلة. وحين عاش بعد عائلته الذي اختطفها الموت، كان يشكر اليد التي عذبته ومن ثم انقذته من الموت. انها يد الله.

لقد لاحظت ان عدد الذين اصيبوا بوافدة الطاعون في الاجواء الغائمة أو المطيرة، كان ضعف عدد أولئك الذين أصابهم الوباء حين كان

الجولطيفاً. كما لاحظت ان المرض في هذه الحالة لم يحترم الاشخاص ولا الاعمار. فالشباب والكهول، والفاتنين والقبيحين، والمرضى والاصحاء، كل هؤلاء قد ضربهم المرض.

حين يفقد البحارة كل امل لهم في السلامة، يعكفون على الشراب، وتخدير أنفسهم. كم هو أمر غريب ان تراقب اثار خطر من نوع آخر يكون أكثر اخافة لك، لانه يبطىء في اقترابه منك. فمن بين الناس الذين يحيطون بي في الوقت الحاضر، ومن أمثال أولئك اللصوص الذين سبق ان تحدثت عنهم، راح البعض من القوم في الواقع يعكف على الشراب، في حين عكف آخرون على اداء الصلاة، بينما راح الكثيرون يشغلون انفسهم بافراط، وذلك بقصد تمضية الوقت.

والظاهر ان كل احساس خلقي قد تبدد. فقد كان كل مجرم يتمشى في الخارج وهو يتصيد ضحاياه علانية، ويستكمل انتقامه الذي ربما كان يفكر فيه من سنين. لقد انطلق كل عنف شرير في طبيعة الانسان دون أن يكبحه كابح.

كم يكون بسيطاً في مظهره، وقوياً في حقيقته، ذلك السلاح الخلقي الذي يستطيع وسط مثل هذا التشابك الاجتماعي، ان يوقف مثل هذه الاحاسيس في داخل نفوسنا!. ذلك لانه في مثل هذا الوضع، ووسط مثل هذه المشاهد، (يكفينا ان نفترض تجميد دمائنا، أو تجريدها من النبض الاعتيادي لطبيعتنا) أجل في مثل هذه المشاهد، تزول جميع الوسائل المتوفرة لكبح الجماح، وينطلق العنف في كل مكامنه الشريرة.

ان مدينة حل بها الدمار لابد وان تبسط المشاهد المفزعة. غير ان بغداد قد أظهرت، خلال موجة الطاعون، المزيد من الامور السيئة ايضاً.

ولكن دعونا ان لا نوغل في الحديث، وان لا نكشف النقاب عما هو أكثر. فالشخص السعيد هو الذي ينظر الى الجانب الحسن من الصورة، وينسى الاجزاء السيئة منها.

كانت الامور على مثل هذه الحال، حين بدأت مياه نهر دجلة بالارتفاع في اليوم الثاني عشر من شهر نيسان من تلك السنة. ففي الايام القلائل التي سبقت ذلك، وقعت أمطار غزيرة، وظل الجو داكناً ملبداً بالغيوم. وهكذا اصبحت الشوارع، وهي غير معبدة، مليء بالاوحال بحيث اصبح السير فيها مستحيلا تقريبا.

في ليلة العشرين من الشهر، وكان حوض النهر قد امتلأ بالماء سريعاً، تهدمت ضفاف النهر، وطغى الماء على القسم الاكبر من المدينة، واذ ذاك اسرع حوالي خمسة عشر ألف من السكان الى الفناء، بينهم العديد من المصابين بالطاعون ذاته، ومن الاطفال واناس من مختلف الاعمار. لقد كان بين هؤلاء القتلى بالفيضان عدد كبير من الذين انقذوا حياة من يحبون من المرض، ثم راحوا ينتظرون مصيرهم في صمت من دون ان يبذلوا اي جهد للهرب.

والى ان هبط مستوى الماء بعد أول زحف له، كان العدد الاكبر من البيوت قد تداعى، ليعقبها انهيار اسسها بعد ساعات.

كنت أنام في القسم العلوي من الدار التي أسكنها، عندما هجم الفيضان، فأيقظني خرير المياه وهو يضرب جدران القاعة. بقيت في مكاني هادئاً كل الهدوء، وذاك لاعتقادي بعدم توفر أي جهد انساني لمساعدتي، فلم أكن اسمع أي صراخ قد صحب ما حدث، ولا شهيقاً أو عويلاً. ولكن حين جلست على الجزء الاعلى من الجدار، استطعت أن أرى جملة

اجسام تجرفها المياه المتدفقة التي اكتسحتها بصمت، فراحت تطفو وسط الماء بملابسها البيضاء.

قبيل حلول الصباح خفت سرعة الفيضان، وتناقص عمقه بالتدريج. وعند شروق الشمس وجدت ان ذلك الماء لم يكن جدولاً واسعاً لا استطيع الخوض فيه. ولذلك تدليت بحبل من السطح الى الشارع. ولكن ما ان مست قدماي الارض بمشقة ظاهرة، حتى انهارت الدار التي كنت فيها، وسمع لانهيارها صوت شديد.

لقد كانت نجاة سعيدة، وهكذا فكرت. ومن ثم اخذت سبيلي الى الجهة المقابلة وجلست على عتبة باب احد المساجد هناك.

كم هي منظمة، وبشكل غريب، عقولنا يا ترى؟ لم أكن أحلم، في أية مناسبات سابقة، بالخطر أبداً. فلقد كنت أجوب المجتمع كله بلا اكتراث، ومن دون أي خوف، ومن غير احتراز. لكنني الى متى سأستمر في ذلك؟ هذا سؤال لم يخطر على بالي قط. غير ان نجاتي الاخيرة تلك، والتي احدثت مفاجأة في الذهن، على أكثر احتمال، انما استفزتها الاحداث السابقة، وأوجدت لبعض الوقت، احساساً عصبياً بالخطر وبالخوف معاً. ولذلك قررت، ومن دون ادنى تأخير، ان اتخذ كل اجراء في مستطاعي لكي اغادر بغداد.

كان هناك احد شيوخ البدو، ممن تعرفت اليهم، يسكن مع ابناء جلدته في كوخ خارج اسوار المدينة تماماً. ولذلك صممت على السكن معه في هذا المكان، وكان المامي بعادات البدو، وصداقتي مع بعض من افراد قبيلة هذا الشيخ، من الامور التي احسنت خدمتي وقت الحاجة. فلقد سبق لي ان قدمت اليهم خدمة جلى في بعض المناسبات. ولذلك ما

ان سمع رئيسهم برغبتي تلك، حتى أعرب عن موافقته على اصطحابي معه عبر الصحراء السورية الكبر ى الى «دمشق» والتي لم يكن الطاعون قد ظهر فيها بعد.

أخذت سكني مع ذلك الشيخ. غير ان اخطار المرض خارج المدينة كانت مساوية تماماً لاخطاره داخل المدينة ذاتها. ففي كل يوم يصاب عدد من سائقي الابل بالوباء ويموتون، وهكذا كانت مغادرتنا لبغداد تتأخر يوماً بعد يوم. وكا ن من نتيجة ذلك انه لم يبق لدي سوى الاعتماد على تعهد الشيخ نفسه.

كان «عبدالله» وهو اسم ذلك الشيخ، قد تزوج مؤخراً من فتاة شابة جميلة، وقد بارك الله زواجهما بان رزقهما بطفلة. ويندر ان شاهدت في أي بلد آخر احب وأجمل من «ظليمة» زوجة الشيخ هذه. فقد كانت فارعة الطول تماماً، ذات جمال انثوي أخاذ. وكانت هيأتها ومشيتها في منتهى الرشاقة. ولم تكن سحنتها اكثر سمرة من سحنات امثالها من الفتيات الجميلات في ايطاليا، وهي وان كانت بالطبع اكثر شحوباً، إلا انها اكثر صفاء وصقلاً. وكان شعرها يتدلى في جدائل على صدرها.

وكانت وجنتاها رائعتي اللون، وشفتاها حمراوين، مكتنزتين، ممتلئتين، واسنانها بيضاً ولؤلؤ ية. كانت تبدو بمنتهى البراءة والسذاجة، فهي تجلب طفلها إلي كي ألاطفه، ولم تكن تخفى وجهها أبداً وكانت تحضر معنا على الدوام حين نتناول وجبات الطعام.

تقرر أن نبدأ رحيلنا عند الصباح القادم، ولذلك رحت اتمشى لكي القي نظرة أخرى على المدينة المهدمة. لقد غدت شوارعها التي كانت مكتظة قبلا بالناس، خالية الان، وقد غدا من قبيل المصادفة رؤ ية عابر

سبيل وحيد يمر سريعاً وهو يضع على انفه كيساً صغيراً من العطور.

كان احد الحمير محملا بجثث الموتى العراة، ويسوقه أحد الفتيان، قد مر بي وهـو في طريقـه الى خنـدق المـدينة، الذي تحول الى مقبرة عامة رمي فيهـا أولئـك الذين قتلهم الطاعون. لقد شعرت بالمرض لدى رؤيتي لهذا المنظر، ولذلك أسرعت في العودة، والانضمام الى «عبدالله»، فوصلت اليه في الوقت الذي شهدت فيه منظر الفراق بينه وبين زوجته الجميلة.

لقـد انكبت بيأس وتضـرع على قدميـه، في الـوقت الـذي كان فيه اخـوهـا يحاول دون جدوى ابعـادها عن زوجها. لقد خارت قواها، وحين تراخت قبضـة ذراعيهـا، حملت بعيـداً عن زوجها وهي فاقدة الوعي. لقد خيـل الي ان فؤاد «عبـدالله» سوف ينفطـر. وذلـك لانـه ما ان القى نظرة واحـدة على هيكـل زوجتـه للتـداعي، حتى تسـاقطت قطـرات قليلة من الدموع على وجنتيه، ومن ثم انفرط من ذلك المشهد المثير بخطى سريعة.

كانت التـزامـاتي بالنسبـة الى «عبـدالله» في سفرتنا المقبلة المحفوفة بالمخاطر، كثيرة جداً. فهناك من الاسباب مايحملني على محبته لكنني اسارع الآن الى اختتام قصته.

بعـد مسـيرة استغرقت عشرين يوماً في الصحراء، لم يمكث عبدالله في «دمشق» سوى اربـع وعشـرين ساعـة، اسـرع بعدها في العودة ليشارك عروسـه في مصـيرهـا. وحـين وصل الى بيته بسلام وجد ان زوجته وطفله الجميلين قد ماتا سوية.

لقد رأيته بعد اثني عشر شهراً على زيارتي الأولى. وحين راح يقص علي نبأ النكبـة كان يعقب على حديثـه بكل هدوء قائلاً «ما أمر الله به لابد

من وقوعه. ذلك ان الله يأخذ ما وهبه، ولابد للبشر ان ينحني طائعاً لأمر الله». ومع ذلك فقد كان يبدو على المسكين «عبدالله» بانه كان مريضاً بشكل مؤلم، وان دليل الموت قد وضع شارته عليه. وبعد وصولي باسبوع ذهبت لزيارته مرة أخرى، فاذا بأخيه الذي التقيت به عند الباب يقول لي «لقد مضى!. لقد قتله مرض القلب الكسير وليس الطاعون، وقد دفن الى جانب زوجته وطفله في آخر بقعة من الارض وأكثرها هدوء!!».

لقد مررت بأنواع من المغامرات التي وقعت في اعقاب الاحداث التي اشرت اليها في الصفحات السالفة، عندما عدت لزيارة مدينة بغداد في السنة التالية. ان الطاعون ما يزال يفتك في المدينة. واذن فما هو نوع التغيير الذي حدث خلال تلك الفترة القصيرة؟.

بعد أن غادرت المدينة في المناسبة السابقة، أخذت المياه تنخفض بالتدريج، لكنها كانت قد خلفت وراءها الكثير من البرك الآسنة. وقد غدا من شدة مضايقة هذه البرك، انها اصبحت تشترك مع الروائح الكريهة المتصاعدة من الاجساد المتفسخة الملقاة في خندق المدينة، الامر الذي نجم عنه انتشار الحمى التي غدت اثارها مميتة عندما ارتفعت حرارة الجو، فاصبحت اشبه بالطاعون الذي كان زحفه قد توقف آنذاك.

وأعقب هذا كله حدوث مجاعة. ولكن دواعي السخط لم تتحرر منها هذه المدينة المقدسة. كان جيش السلطان[٤] على الحدود الشمالية، يراقب بهدوء تقدم الفوضى، وما ان توقفت هذه الفوضى، حتى بادر الجيش بعد ذلك بوقت قصير، الى محاصرة المدينة. بقي المماليك يدافعون ببسالة عن المدينة لعدة أيام، ومن ثم اضطروا وبسبب الموت جوعاً الى الاستسلام[٥] وهكذا تم قتل المماليك جميعاً[٦]، واستبيحت المدينة لاعمال النهب والسلب، فأصبح الآن اكثر من ثلثيها خراباً، وبسبب هذه الكوارث المتشابكة، تناقص عدد السكان فيها من مائة وخمسين الف نسمة الى عشرين الف نسمة ليس الا[٧].

(٤) هو السلطان محمود الثاني الذي تولى الحكم بعد خلع اخيه السلطان مصطفى. وهو ابن السلطان عبدالحميد الاول ولد في ١٣ رمضان ١١٩٩هـ شرقي ١٧٨٧م وتولى العرش سنة ١٨١١م، وتوفي في التاسع عشر من شهر ربيع الاول سنة ١٢٥٥هـ ش «١٨٤٢م».

وكان هذا السلطان هو الذي استغل حادث الطاعون في العراق فقرر القضاء على حكم المماليك فيه، واعادة احتلاله جددا، ولذلك وجه جيشاً كبيراً لهذا الغرض اناط قيادته بيد علي رضا اللاز والي حلب في ذلك الوقت.

(٥) كان قاسم العمري قد تولى باشوية الموصل من قبل السلطان محمود مباشرة ومن دون استشارة داود باشا في هذا الام. ولذلك توجه قاسم العمري على رأس طلائع من الجيش العثماني، بصفة ممثل لعلي رضا اللاز، الذي مايزال في اموصل، الى بغداد لافتتاحها وكان معه كل من «صفوق» شيخ «شمر الجربا» وسليمان الغنام شيخ عشيرة العقيل. وفعلا دخل قاسم العمري مدينة بغداد، فسولت له نفسه ان يقتل داود باشا ويعلن نفسه هو الوالي على بغداد. ولذلك الح على اهالي بغداد في تسليم داود باشا اليه. ولكن اهل بغداد ابوا ان يستجيبوا لهذ الطلب واعلنوا لعصيان ونشب القتال بين انصار قاسم العمري وانصار داود باشا، قتل بنتيجتها قاسم العمري ومتسلم ماردين.

وحين علم علي رضات بدخول قاسم العمري الى بغداد من دون مقاومة تحرك بجيشه نحو بغداد فوصل اليها في بداية شهر تموز ١٨٣١م وخيم في الاعظمية، ثم حاصر بغداد لاكثر من شهرين حيث دخل الجيش العثماني بغداد من الباب الشرقي في ليلة اليوم الرابع عشر من ايلول.

(٦) في الوقت الذي ارسل فيه داود باشا عائلته الى الاستانة، وضع علي رضا خطة محكمة للقضاء على جميع المماليك في بغ،داد، وتخليص الدولة العثمانية من تمردهم. فقد دعا المماليك الى حضور اجتماع بقصد قرارة لاوامر صادرة من السلطان بتوزيع المناصب على الشخصيات وقد ملأ القصر بعدد كبير من جنده الذين اتفق معهم على اشارة معينة تصدر منه للانقضاض على المماليك وذبحهم وقد نفذت المؤامرة بدقة، وذبح المماليك ذبح الاغنام، ولم يفلت منهم سوى عدد ضئيل تم القاء القبض على البعض منهم، ونجا البعض الآخر، ولكن علي رضا مالبث ان عفا عن جميع اولئك.

(٧) لم يكن السلطان محمود يريد، رغم تخطيطه المسبق للقضاء على حكم المماليك في العراق وارسال الجيوش لاحتلال بغداد، ان ينتقم من داود باشا او يلحق به اذى. وبتوصية منه اظهر علي رضا اللاز، عندما خيم خارج اسوار بغداد، منتهى اللطف مع داود باشا واظهار التقدير له. فقد خف الى استقباله، وعانقه، واخذه الى خيمته، وراح يسأله عن صحته واحواله. وبعد ان رفع علي رضا فنجان قهوته وتناول منه رشفة قدمه الى داود باشا ليشرب منه. وحين هدأ داود رغب الى

اخذت طريقي في عزلة نسبية، فرحت اسوق حصاني أمامي، لانه كان متعباً جداً، ولا مجال لامتطائه وركوبه. لم يكن لدي من مال، ولم اعد استطيع العثور على شيء من العلف لاطعام الحصان، ولذلك اضطررت الى بيعه لاحد البدو بمبلغ خمسة دولارات. ولقد اسفت كثيرا على ضياع ذلك الحيوان الذي حملني على ظهره مسافة ثلاثة الاف ميل تقريباً.

كان عدد الناس الذين يموتون كل يوم من الناس القلائل الباقين في بغداد، يبلغ خمسمائة فرد. وكانت دار المقيمية البريطانية ما تزال قائمة هنا، غير ان شدة اجراءات الحجر الصحي قد حالت دون السماح لي بالدخول اليها، وهكذا ارغمت على ان امضي الليل في اصطبل قريب من دار المقيمية ذاتها. كان البستاني القديم هو الشخص الوحيد الذي التقيت به هناك، وكان يندب اباه وولديه.

لم أكن قد ادركت عودة الطاعون الى المدينة مرة أخرى. لكنني وجدت نفسي ادخل المدينة وليس لي اصدقاء فيها، استطيع ان اغادرها ايضاً. ولذلك سكنت في خان قديم، وعشت هناك في ضنك واشد اقتصار لان دخلي قد أرغمني على ان افعل ذلك.

علي رضا ان يأتيه بولده «حسن» وكان هذا آخر من بقي من اولاد داود على قيد الحياة، ولم يكن ليتجاوز عمره الخامسة، فأمر علي رضا باحضار ذلك الطفل، ثم جاءه بكل افراد اسرته، وترك له الحرية في استقبال اي زائر يزوره دون حراسة.

وقد ارسل داود واهل بيته في قافلة خاصة يحرسها الجند الى الاستانة. وحين قابله السلطان محمود عفا عنه واراد الاستفادة من خبرته فولاه مقاطعة «البوسنة» خلال الفترة ١٨٣٣ - ١٨٣٥م ثم رئاسة مجلس الشورى سنة ١٨٣٨م وانقرة سنة ١٨٣٩، وبعد ان عزل في سنة ١٨٤٠م التمس السلطان ان يتولى مشيخة الحرم النبوي فأجيب طلبه وبقي بالمدينة المنورة حتى توفي سنة ١٨٥٠م ودفن بالبقيع.

وحين اختفت كل آثار الوباء، وانحسرت مياه الفيضان التي طغت على المدينة مرة أخرى أيضاً، وعادت الى مستواها السابق، غادرت الخان، ورحت اتجول وسط المدينة المتهدمة، ابحث عن اصدقائي الذين نجوا من الطاعون ومن الفيضان. يا للاسف! كم هو ضئيل عدد أولئك الذين كانوا يتلقون الآن تحياتي. . لقد خلت كل الشوارع من الناس بفعل الوباء، وتعطل السير فيها بسبب الفيضان.

دخلت جملة من المنازل التي ما تزال قائمة. ما هي المناظر القبيحة المتغيرة التي عرضتها علي تلك المنازل! لقد اجتذبت شهرة غنى اصحابها السابقين، اليها عصابات اللصوص التي سبق ان تحدثت عنها قبلا، فسرفت تلك العصابات منها كل ما له قيمة. ولقد حدثت معارك شديدة بين اللصوص المهاجمين واصحاب تلك المنازل، ولكنها ما لبثت بعد ساعات قلائل، ان غدت اتفه من حثالة لاي من المتصارعين فيها.

ففي داخل صالة المدخل لبيت احد التجار الجيورجيين الذي تعرفت اليه قبلاً، كانت جثة احد العبيد، وجثة احد اللصوص ملقاة معاً على الارض. كان اللص يمسك في يده اليسرى ببندقية اصابت بدن العبد حين كان يواصل تقدمه نحو اللص، فلم يكن من العبد الا ان استجمع قواه، فأغمد خنجره في صدر اللص، ثم خر الاثنان صريعين. ولابد ان يكون الاثنان قد ماتا في وقت واحد، لانها قد تمدد احدهما بجنب الآخر، وكان وجه اللص متجهاً الى اعلى وقد شوه تشوهياً قبيحاً، بينما ظل وجه العبد هادئاً، وبقيت يده اليمنى تمسك بخنجره.

سرت خلال البيوت والمرافق التي سلمت من التخريب. وكنت ادور في الصالات وفي الممرات التي كانت تردد قبلاً صدى اصوات البشر، ووقع اقدامهم.

كيف تغير المنظر الآن يا ترى؟ ليس هناك من صوت يطرق الآذان سوى صدى خطواتي التي تبعث الضوضاء.

لقد غدت الآن قاعة الولائم صامتة ومقفرة. وكان الامر الذي يبعث على الكآبة بصفة اشد، هو الانعكاس الذي يوضح بأن هذه القاعة لن تمتلأ ثانية بالضيوف الذين غادروها ليلة امس، لكي يعودوا اليها غداً في لهبة متجددة. لقد تخلت هذه القاعة عن ان تشارك ضيوفها اولئك في هجوعهم.

لقد كلحت الوان ابواب الدواوين الزاهية البراقة، وغشيها الغبار المتراكم عليها خلال شهور. كان هناك عدد من الغلايين، مايزال بعض منها مليئاً جزئياً بالتبوغ، وهي ملقاة قبالة الارائك، وقد تركت الى جانبها اقداح القهوة المكفتة بالذهب، وهي نصف ملىء.

ليس في مقدور الخيال ان يتصور رب البيت، اثناء الهجمة الاولى للوباء، وقد نهض من نومه بغتة، وراح يترنح وهو في سريره، ذلك لان الموت هو الشيء الوحيد الذي سيستدعيه اليه.

كان هناك احد التجار من الارمن الذين اعرفهم. وكان من حسن حظه ان رزق بفتاة كانت أجمل مخلوق وقعت عليه عيناي. كانت قامتها اقل من المتوسط، ولكن لا يعرف مدى ارتفاعها الا اذا وقفت مع الفتيات الاخريات. وكانت يداها وقدماها قصيرة جداً، ورقبتها طويلة ومستدقة. وحين وصلت انباء الطاعون لاول مرة الى بغداد، شاهدتها تقف الى جانب شقيقتها الصغرى، وكانت شديدة التعلق بها، وقد شبكت ذراعيها على صدرها، وراحت تتطلع بعينيها المشعتين في محجريهما السوداوين، الى السماء وهي تسأل الله بلهفة ان يباركها ويحميها، وذلك بشكل لم أرَ له مثيلاً من التضرع والدعاء.

مضت عدة شهور على تعارفنا لاول مرة، قبل ان اعلم بأن «مريم» كانت تنتظر عودة شاب من ابناء جنسها قادماً من «حلب» للاقتران به. وقد اتخذت الاجراءات اللازمة على عجل لهذا الحادث. وحين هجم الطاعون اقامت العائلة محجراً صحياً لها في البيت، ومنذ ذلك الوقت لم اسمع شيئاً عنها.

حين اقتربت الآن من منزل ذلك التاجر، وجدت البَاب موصداً فطرقته بعصاي عدة مرات من دون ان الفت الانتباه الى ذلك، واذ استنتجت من ذلك ان اهل الدار قد شاركوا غيرهم في ذات المصير، استدرت وانا اطلق الأهات، فاذا بالباب ينفتح ببطء ليطل منه صوت التاجر الضعيف وهو يدعوني الى الدخول.

تحسسته بيدي فلم يتكلم، لكنه ما لبث ان عرفني، وراح يصعد السلم امامي ببطء. ونظرت الى ما حوله فوجدته انه لوحده في البيت، واذ ذاك سألته بصوت مبحوح قائلاً: «وابنتك مريم؟».

لقد تكسرت الكلمة في فمه، فارتمى على كرسيه، واطلق العنان لفيض دموعه التي سالت على لحيته، ثم اخذ ينشج منتحباً، حتى خشيت ان يضع هذا النحيب نهاية له ولاحزانه، اية كلمات يستطيع المرء ان يتلفظ بها الآن للتعزية! ظللت احدق فيه بصمت. وكانت فرحتي عظيمة عندما استرد هدوءه في النهاية، وراح يعتذر الي في عبارات متقطعة، ويطلب مني ان اسامحه على ضعفه ذاك، وهو يقول:

«انك ايها الفرنجي اول شخص اراه بعد اولئك الذين كانوا لعدة شهور يحيطون بهذه الدار المؤذية. غير انني لا استطيع ان اتحدث اليك الآن».

وصفق بيديه فظهر احد العبيد، الذي لم تكن دهشته لرؤيتي لتقل عن دهشة سيده. بعث الرجل المسن عبده ذاك لجلب الغلايين والقهوة. وبعد ان انتظمنا في جلستنا حصلت منه على تفاصيل الحادث المؤلم الذي نزل به . . . قال:

«لقد نجحنا عن طريق الاحتياطات الثابتة التي اتخذناها طيلة ثلاثة اسابيع، في وضع الوباء عندنا، ولو ان الذين كانوا يعيشون في جوارنا، كانوا يرددون صدى آلام اولئك الذين يعانون من المرض، اويندبون حظ الآخرين. دلفت في صباح احد الايام الى غرفة «امينة»[8] فوجدت ان احد الحيوانات قد اضطجع في سريرها في مساء سابق. لقد ادركت تماماً بأن المرض غالباً ما ينتقل بمثل هذه الوسائل. ومع ذلك فلم اقل شيئاً.

واذ مضت بعض الايام التي كنت خلالها اعلل نفسي بامل، في ان مخاوفي لا اساس لها، اقتنعت في صباح احد الايام تمام الاقتناع بأن تلك الطفلة المسكينة قد اصيبت بالوباء. لقد كانت تشكو من رجفة باردة حين كانت تعود الى فراشها، تعقبها حرارة خارقة، والم شديد في معدتها، في الوقت الذي اخذت فيها الغشاوة والصفاء يمتزجان بشكل غريب في عينيها الثابتتين.

لم يختف المرض لحظة واحدة من عين «مريم» القلقة على اختها. وعلى الرغم من صلوات ابيها واصدقائه وابتها لاتهم، كانت الفتاة البهية تفلت من أذرع الجميع، وتهرع الى غرفة شقيقتها المحبوبة. كانت «مريم» تجلس الى جانب شقيقتها المسكينة التي كانت تعاني ألم المرض، وتراقب كل حركة تبدر منها. ها انها الآن قد بللت شفتيها اليابستين، ومسحت بالماء جبهتها الشاحبة الملتهبة، وغطت قرحاتها الكريهة، اوراحت تتطلع بهدوء الى تسكين الهذيان الهائج.

(٨) هو اسم ابنته الصغرى وشقيقة الكبرى «مريم».

لم تكن مريم تأكل اوتشرب شيئاً ما، بل انها لم تكن تنام. كانت تتنفس ذات الهواء مع شقيقتها لانها لم تعش الا من اجل شقيقتها تلك. وحين انتقلت تلك الروح اللطيفة النقية الى بارئها، بعد خمسة ايام، وخمس ليال من المراقبة الشديدة، لم تنبس «مريم» ببنت شفة، ولم تظهر اي مظهر من التأثر، وانما بقيت تمارس ببطء وبهدوء مراسيم الحزن الاخيرة.

وحين استفاقت اخيراً من عزلتها تلك، راحت تحدق في الوجوه الشاحبة المضناة، ولما لم تقدر على الصبر كثيراً، القت بنفسها، واخذت تدفع جانباً كل اولئك الذين كانوا يراقبون حركاتها عند باب الغرفة، وغادرت غرفة اختها. وما ان دخلت الى غرفتها، حتى القت بجسمها على فراشها، واخفت وجهها تحت الوسادة، ولم تبدر منها لا آهات ولا دموع، وانما اعترتها في البداية رجفة خفيفة، واضطرابات عنيفة.

لقد عاد الآن خطيبها ليفضي اليها بأسرار حبه لها. وكان واضحاً ان صوته قد هدأ من اضطرابها. وبعد ان بقي ساعات الى جانبها كان سعيداً لان يرى اول نعاس يطوف بعينيها، ومن ثم غشيها النوم السعيد.

فبعد ان انهكتها المراقبة الطويلة، نامت الآن نوماً هادئاً، ومن ثم افاقت وهي تمتلك كامل مشاعرها، على الرغم من الحمى المعتادة التي اصابتها.

وضع حبيبها يديها بين يديه، واذ نظرت اليه في رقة وثبات قالت تخاطبه «دعني يا حبيبي. لقد جأت في وقت متأخر جداً. لقد كنت قبلاً احس بالسم القاتل ينساب في عروقي، ولذلك فلا تنفعني اية مساعدة من انسان. فعليك ان تهرب الى الصحراء ،،، ووداعاً!».

وعاد ابوها يقول لي «لا تدعني اقص عليك تفاصيل الخطر المرعب الذي انصب على تلك المخلوقة البائسة. ويكفي ان اذكر لك ان تلك الانسانة التي كانت تتهادى بجمالها مثلما تتهادى السماء البهية الخالية من السحب، كانت تنطرح الآن اشبه بالجثة الهامدة، وقد غشيت القروح السوداء بدنها. لقد بقيت ساعات طويلة وهي فاقدة الحس عن كل ماكان يجري من حولها، واذ ذاك نطق حبيبها، بعد ان يئس من شفائها قائلاً: «لنضع ثقتنا في الله وحده».

ويبدو ان الله قد اثابه برحمته. ففي احد الايام وحين كان يمسح جبهتها، احس برطوبة طفيفة فيها، ثم اعقب ذلك رشح سريع. لقد انقضت ازمة الخطر، وعاد عقلها اليها، ولم تلبث بعد ايام قلائل ان استعادت صحتها. وهكذا حدث واقترن الخطيبان قبل ان اغادر بغداد، حيث امضيت معهما ساعات بهيجة.

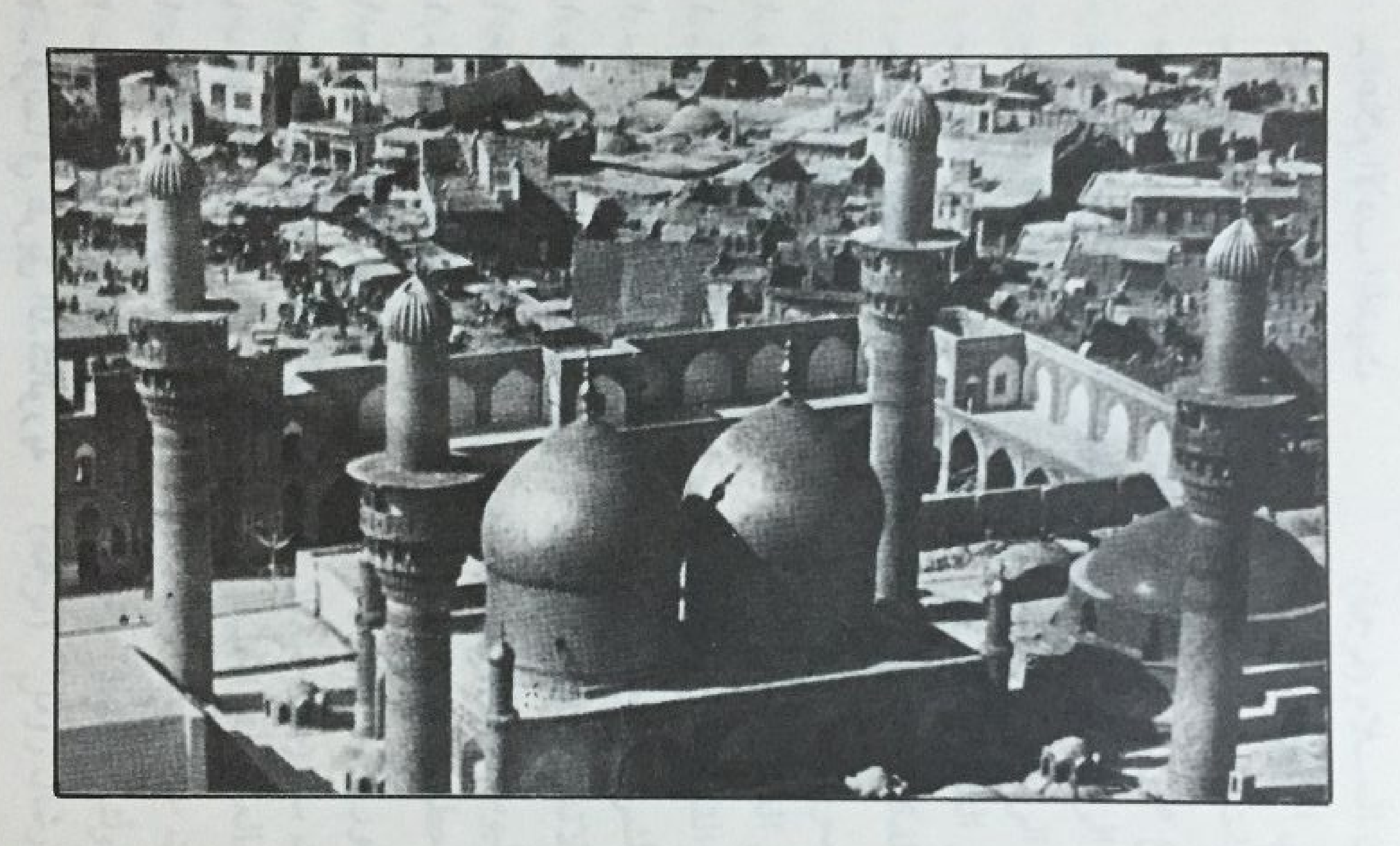


الى هنا انتهى وصف ولستيد لحوادث الطاعون الكبير الذي اصاب بغداد ابتداء من ربيع سنة ١٨٣١م، والذي كان من الاسباب الرئيسة التي ادت الى عدم تمكن داود باشا من مقاومة الجيش العثماني الذي كان يقوده علي رضا اللاز، والذي سيره السلطان محمود الثاني لاستعادة العراق، والقضاء على حكم المماليك والاستقلال فيه.

غادر الرحالة ولستيد بغداد في المرة الاولى مع صديقه الشيخ عبدالله في قافلة مؤلفة من اربعة جمال، كان يمتطي هو وصديقه الانكليزي «اليوت» اثنين منها، في حين امتطى الشيخ عبدالله، البعير الثالث، واوسق البعير الرابع بالاحمال. وقد تحركت لقافلة عند فجر اليوم الثالث من شهر نيسان سنة ١٨٣٣م متجهة نحو الكاظمية شمالاً، ثم توقفت عند شاطىء النهر جنوبي الكاظمة. وبعد ان ادى عبدالله صلاة الصبح، وملأوا قربهم من ماء دجلة العسكر، استداروا نحو الشمال الغربي باتجاه الفلوجة، حيث اخذوا طريقهم على الضفة اليمنى من نهر الفرات الى سوريا.



جسر الموصل



مرقد الإمام موسى الكاظم

مؤلفات المترجم المطبوعة

١ - اعلام الادب الحديث	١٩٤٠
٢ - في الاتحاد السوفياتي (ترجمة)	١٩٤١
٣ - القضية البولونية	١٩٤٢
٤ - الام لمكسيم غوركي بالاشتراك مع جماعة	١٩٤٣
٥ - كيف انشىء الاتحاد السوفياتي (ترجمة)	١٩٤٤
٦ - مكسيم غوركي	١٩٤٥
٧ - مشكلة المستعمرات (ترجمة)	١٩٤٦
٨ - الحرب العظمى الثانية - مجلد اول	١٩٥٠
٩ - الانقلابات العسكرية في سوريا	١٩٥٠
١٠ - الحرب في كوريا	١٩٥٠
١١ - معركة النفط في ايران	١٩٥١
١٢ - مراحل الكفاح الوطني في فيتنام	١٩٥٢
١٣ - فرموزا آخر معارك الصين	١٩٥٢
١٤ - الملك الاسير (ترجمة)	١٩٥٣
١٥ - المارشال رومل (ترجمة)	١٩٥٣
١٦ - معركة النفط في العراق	١٩٥٤
١٧ - الحلف التركي الباكستاني	١٩٥٤
١٨ - مهرجان السلام في برلين	١٩٥٤
١٩ - مشكلة الشرق الاوسط	١٩٥٦
٢٠ - حياة لويس باستور (ترجمة)	١٩٥٧
٢١ - فرنسا في طريق الدكتاتورية	١٩٥٨
٢٢ - حكومة كيرالا في الهند (ترجمة)	١٩٥٩
٢٣ - مرحلة ما بعد الاستقلال (ترجمة)	١٩٥٩

٢٤ ـ سر الخلاف بين مصر والعراق (ترجمة) ١٩٥٩
٢٥ ـ حزب الطبقة العاملة (ترجمة) ١٩٥٩
٢٦ ـ ابطـال السـلام (ترجمة) ١٩٥٩
٢٧ ـ جولة في الخليج العربي (ترجمة) ١٩٦٢
٢٨ ـ مشاهدات بريطاني في العراق (ترجمة) ١٩٦٢
٢٩ ـ الصراع على الخليج العربي ١٩٦٤
٣٠ ـ رحلتي الى العراق ـ جمس بكنغهام ج١ (ترجمة) ١٩٦٨
٣١ ـ رحلتي الى العراق ـ جمس بكنغهام ج٢ (ترجمة) ١٩٦٩
٣٢ ـ نظرة في النظام الاقتصادي الاسلامي (ترجمة) ١٩٦٩
٣٣ ـ الحياة الفكرية في عهد الخلفاء الراشدين (ترجمة) ١٩٧٠
٣٤ ـ فن التصوير عند العرب (ترجمة) ١٩٧٤
٣٥ ـ الفن في العراق القديم (ترجمة) ١٩٧٥
٣٦ ـ العراق القديم (ترجمة) ١٩٧٦
٣٧ ـ رحلة المشرق (ترجمة) ١٩٧٨
٣٨ ـ سـومر لاندري بارو (ترجمة) ١٩٧٩
٣٩ ـ الحياة اليومية في بابل وآشور (ترجمة) ١٩٧٩
٤٠ ـ معركة حطين وتحرير القدس ١٩٧٩
٤١ ـ بلاد آشور لاندري بارو (ترجمة) ١٩٨٠
٤٢ ـ مذكرات سندرسن طبعتان (ترجمة) ١٩٨٠ ـ ١٩٨١
٤٣ ـ المقاومة العربية في الخليج العربي ١٩٨٢
٤٤ ـ مغامرات حجي بابا الاصفهاني ، ج ١ ١٩٨٣
٤٥ ـ ثلاثة ملوك في بغداد (ترجمة) ١٩٨٣
٤٦ ـ حياة المارشال رومل (ترجمة) ١٩٨٤

٢٤ ـ سر الخلاف بين مصر والعراق (ترجمة) ١٩٥٩
٢٥ ـ حزب الطبقة العاملة (ترجمة) ١٩٥٩
٢٦ ـ ابطـال السـلام (ترجمة) ١٩٥٩
٢٧ ـ جولة في الخليج العربي (ترجمة) ١٩٦٢
٢٨ ـ مشاهدات بريطاني في العراق (ترجمة) ١٩٦٢
٢٩ ـ الصراع على الخليج العربي ١٩٦٤
٣٠ ـ رحلتي الى العراق ـ جمس بكنغهام ج١ (ترجمة) ١٩٦٨
٣١ ـ رحلتي الى العراق ـ جمس بكنغهام ج٢ (ترجمة) ١٩٦٩
٣٢ ـ نظرة في النظام الاقتصادي الاسلامي (ترجمة) ١٩٦٩
٣٣ ـ الحياة الفكرية في عهد الخلفاء الراشدين (ترجمة) ١٩٧٠
٣٤ ـ فن التصوير عند العرب (ترجمة) ١٩٧٤
٣٥ ـ الفن في العراق القديم (ترجمة) ١٩٧٥
٣٦ ـ العراق القديم (ترجمة) ١٩٧٦
٣٧ ـ رحلة المشرق (ترجمة) ١٩٧٨
٣٨ ـ سومر لاندري بارو (ترجمة) ١٩٧٩
٣٩ ـ الحياة اليومية في بابل وآشور (ترجمة) ١٩٧٩
٤٠ ـ معركة حطين وتحرير القدس ١٩٧٩
٤١ ـ بلاد آشور لاندري بارو (ترجمة) ١٩٨٠
٤٢ ـ مذكرات سندرسن طبعتان (ترجمة) ١٩٨٠ ـ ١٩٨١
٤٣ ـ المقاومة العربية في الخليج العربي ١٩٨٢
٤٤ ـ مغامرات حجي بابا الاصفهاني ، ج ١ ١٩٨٣
٤٥ ـ ثلاثة ملوك في بغداد (ترجمة) ١٩٨٣
٤٦ ـ حياة المارشال رومل (ترجمة) ١٩٨٤

تحت الطبع

١ ـ حصار الكوت ـ ترجمة .
٢ ـ الجاسوسية في البلاد العربية جزءان .
٣ ـ من قصص الجاسوسية العالمية .
٤ ـ دور العسكريين في السياسة العراقية .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٩ ١٠ لسنة ١٩٨٤

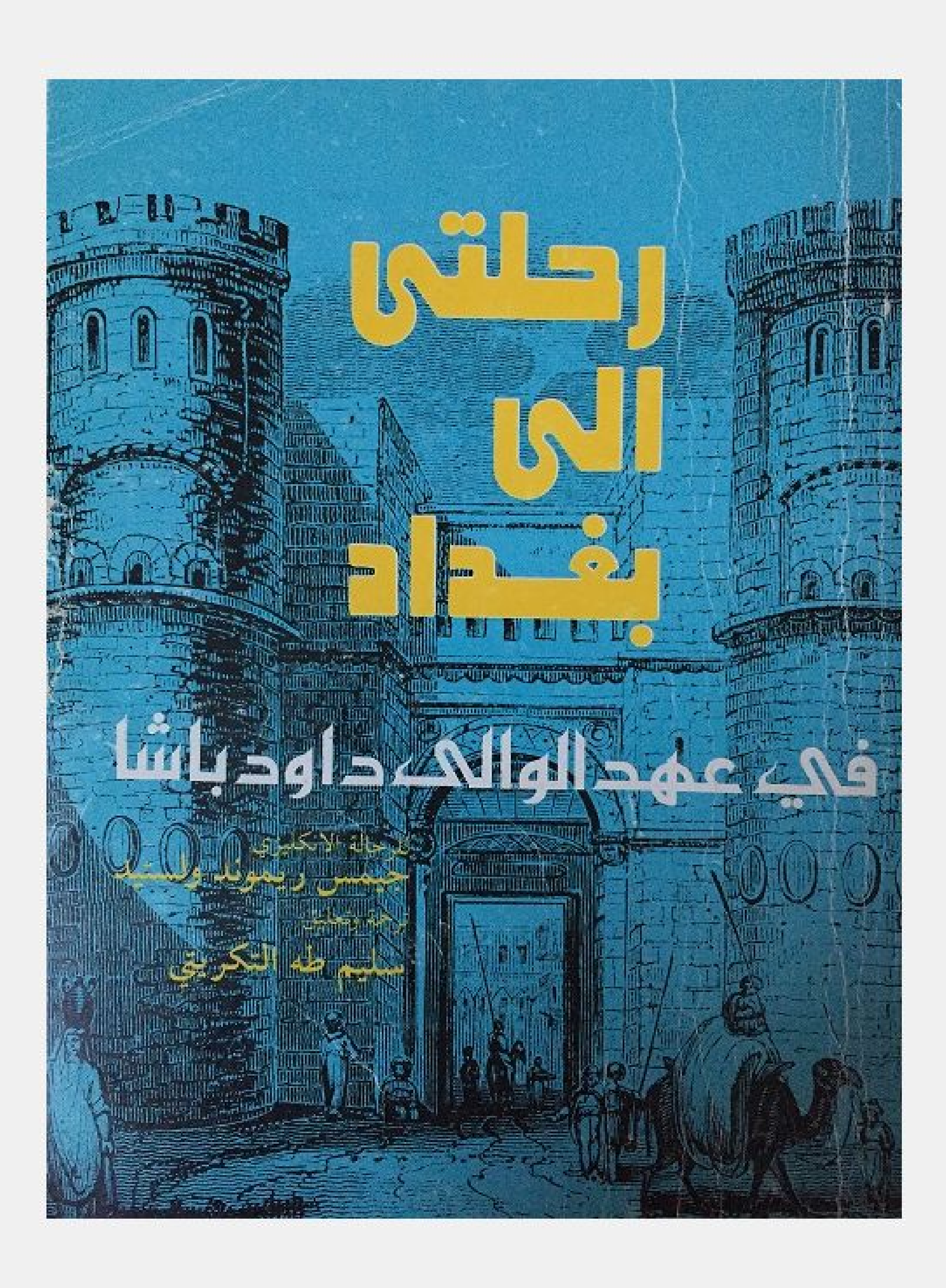
هذا الكتاب

في كتب الرحالة القدماء متعة بالغة لما تنطوي عليه اسفارهم من مغامرات فيها قدر كبير من الخطورة ، وهم يقطعون الفيافي والسهول والوديان ، لأشهر عدّة ، وربما لسنوات . . . مشياً على الاقدام تارة وعلى ظهور الدواب تارة اخرى ، أو يمخرون عباب البحار والأنهار بالسفن الشراعية أو بالقوارب النهرية في بلاد لا يعرفون لغة اهلها ، ولا يجيدون طباع وعادات سكانها .

وفي مثل هذه الكتب يمكن للقارىء ان يتزود بالمعلومات المفيدة التي تضيف الى معلوماته الشيء الجديد ، والكثير عن احوال بلاد ما، ونمط الحياة التي كان يعيشها السكان في فترة من فتراتها التأريخية ، حيث لا يسجل ابناء البلاد عادة مثل هذه التفاصيل الشيقة .

وفي هذا الكتاب يجد القارىء مشاهدات زاخرة بالحيوية والمشاعر الانسانية لسكان العراق ، كان قد سجلها الرحالة الشهير ولستيد عندما قام برحلته الى المنطقة في عام ١٨٣١م، حيث يتحدث عن آثار العراقيين ومدنهم ، وعن احوالهم الاقتصادية والاجتماعية واسلوب ادارة شؤون البلاد في عهد الوالي داود باشا . . . اضافة الى ماشاهده من مآسي وباء الطاعون وفيضان دجلة ، والآثار الاجتماعية والأمنية لتينك الكارثتين المدمرتين ، اللتين سهلتا للدولة العثمانية اعادة السيطرة المباشرة على العراق ، بعد ان ظل خلال الفترة من ١٧٤٨ الى ١٨٣١ يتمتع بشبه استقلال ذاتي في عهود المماليك .

نشر وتوزيع مكتبة النهضة العربية
ومكتبة دار احياء التراث العربي
بغداد ـ هاتف : ٨٨٨٩٣٥٩
تلكس : ٣٠٩٦ ـ بغداد


رحلتي
الى
بغداد
في عهد الوالي داود باشا
للرحالة الانكليزي
جيمس ريموند ولستيد
ترجمة وتعليق
سليم طه التكريتي